# البلاغة
# بين
# التنظير والتطبيق

## رعاية حال المتكلم فى سورة البقرة
دراسة نظرية تطبيقية

تأليف
د / عبد الحميد هنداوى
مدرس البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم

يكاد يكون المنهج الاستقرائي هو أقوى المناهج العلمية وآكدها في إثبات الحقائق بطريقة لا يداخلها الشك.

وإذا كان ذلك المنهج قد أحرز نجاحاً واضحاً في مجال العلوم التجريبية فلا شك أنه أكثر قدرة على البرهنة على الحقائق الثابتة في اللسانيات وعلوم اللغة عامة.

وبوسعنا أن نستخدم هذا المنهج لاختبار وتمحيص العديد من المقولات النظرية، ولا أكون مجازفاً إذا قلت إن جميع المقولات النظرية بحاجة إلى اختبارها وتمحيصها بهذا المنهج، حيث إنني أعتقد أن الاستقراء هو الطريق الوحيد لاعتقاد تلك القواعد أو التسليم بتلك الأصول النظرية، والإيمان بها إيمانا لا يخامره الشك والريبة.

والحق أن هذا ليس منهجا مبتدعا، ولكنه منهج قديم قدم البحث اللغوى ذاته عند أسلافنا الأوائل.

فما وضعت القواعد ولا الأصول الثابتة التى توارثناها إلى اليوم، وجعلناها بمثابة البديهات والمسلمات التى يبنى عليها، إلا

بطريق الاستقراء الذى سنّه الأوائل أمثال أبى الأسود الدؤلى، والخليل، وسيبويه، وابن جنى، وغيرهم ممن عكفوا على نصوص تلك اللغة العريقة، فى نماذجها الرفيعة العالية من قرآن وحديث وشعر ونثر يلتمسون فيها الظاهرة اللغوية ثم يتتبعونها فى سائر النصوص يسيرون معها حيث سارت، يرقبون اطرادها واعوجاجها، ويقيدون شواردها حتى ضبطوا صحيحها وشاذها، وعرفوا كثيرها وفذّها، فهذا صحيح مطرّد وقاعدته كذا وكذا، وهذا يَرد كثيراً، وهذا قليل الورود، وهذا فذّ مفرد يحفظ ولا يقاس عليه، وهكذا .

وإذا أردنا أن نطبق هذا المنهج في دراسة البلاغة فإننا نستطيع أن نقول إن قوام هذا المنهج ثلاثة أمور:

الأول: هو تحليل النصوص الأدبية (محلّ الاحتجاج والاستشهاد) بغية الوقوف على الظاهرة البلاغية.

الثانى: استقراء هذه الظاهرة فى عموم تلك النصوص، ورصد اطرادها وانحرافها أو شذوذها عمّا يمكن أن نسميه بالقاعدة التى تتبين لنا عند اطراد الظاهرة بكثرة فى أغلب النصوص.

الثالث: استخلاص النتائج والخروج من التحليل إلى التنظير.

إلى هنا تنتهى خطة الدراسة اللغوية.

وأحب أن أقرر هنا أننا لن نبدأ من فراغ، بل إن الباحث الذى يريد أن يطبق هذا المنهج قد كفاه المتقدمون والمتأخرون مؤنة المرحلتين الأولى والثالثة إلى حدّ كبير.

فهو ليس بحاجة إلى تحليل كل النصوص الأدبية محل الاستشهاد والاحتجاج فلقد كفاه المفسرون والشراح أكثر ذلك، وإن كان بحاجة إلى إعادة النظر فى كثير من تلك التحليلات تبعاً لاتساع الرؤية النقدية لديه عن هؤلاء القدماء.

كما أنه ليس بحاجة كذلك إلى استخلاص القواعد ووضع الأصول فقد كفاه ذلك المنظرون للبلاغة متقدموهم ومتأخروهم إلى حد كبير . ولكنه بحاجة إلى تمحيص قدر ليس باليسير من تلك القواعد والأصول .

ذلك أننا نعتقد أن ثمة فجوة كبيرة قد حدثت في تراثنا البلاغى بين النظرية والتطبيق، بمعنى أن كثيراً من القواعد والأحكام النظرية التى انتهت إليها البلاغة النظرية قد اختلفت

عما انتهى إليه البلاغيون في تحليلهم للنصوص وتعليقهم عليهـــا، ذلك التعليق الذي كان يتسم في كثير مـــن الأحيـــان بـــالصدق والعفوية ومسايرة النص والانطلاق منه، بدلا من الانطلاق مـــن قواعد ومسلمات ذهنية خيالية لا أساس لها في الواقع اللغوى ثـــم يحاول البلاغيون والنقاد بعد ذلك فرضها على الواقـــع اللغـــوى وإلزام المتكلمين بها وقسرهم عليها.

والذي أدى إلى هذه الفجوة في الحقيقة إنما هـــو ذلـــك الانفصام البحثي الذي سيطر على التراث البلاغي.

وذلك أن البلاغة إما أن يقصد إلى التأليف فيهـــا وفـــق قواعد المنطق وأقيسة العقل، فترتب المباحث ترتيباً منطقيا عقليـــاً، ويعلل لتقدم بعضها أو تأخره، وتوضع للتعريفات الحدود الجامعة المانعة، وتقصر البلاغة على رعاية حال المخاطب وحده، وتقصر أحوال المخاطب في مبحث التوكيد على ثلاثة أحوال مثلا، فهو إما: خالى الذهن أو متردد، أو منكر، وهكذا... فهذه طريقـــة في البلاغة متبعة، وطريق مسلوك، ونهج متلئـــب، وهـــى طريقـــة البلاغيين في كتب البلاغة النظرية التى استقر بها النوى عندمـــا وضع السكاكي كتابه الموسوم بمفتاح العلوم، وقسم فيه البلاغـــة

إلى علمى المعاني والبيان وما يتبعها من وجوه التحسين.

وإما أن تكون البلاغة تحليلا للنصوص القرآنيـــة غالبـــا والنبوية في أكثر الأحيان، ودواوين الشعر المشهورة نادرا وذلـــك بتفسير النصوص وتحليلها وبيان ما فيها مـــن وجـــوه البلاغـــة، ومناحى الإعجاز، في الكتاب العزيز، حيث كانت قضية الإعجاز هى أعظم قضية أثرت البحث البلاغى من خلال اهتمام المفسرين البلاغيين ببيان وجوه ذلك الإعجاز والكشف عن أسراره.

ومن ثم يقف المفسر البلاغي أمام الآية فيستجلى ما فيها من وجوه البلاغة من واقع الآية لا مما تمليه عليه قواعـــد المنطـــق وأقيسته فيأتي التحليل والتعليق متأثرا بـــروح النـــص، متشـــبعا بنورانيته، يسير معه حيث سار، ويدور معه حيث دار، ويقرر ما فيه من البلاغة العالية، ويشرح وجوهها، ويكشف أسرارها.

وكثيرا ما كان يحدث في غمرة هذا التحليل البلاغي أن يغفل الشارح أو يتغافل عما قرره هو أو غيره من البلاغيـــين في مباحث البلاغة التنظيرية التى تتقيد بأحكام العقل وأقيسته المنطقية أكثر من تقيدها بالواقع اللغوى الذي تمليه النصوص.

ولا شك أن هذه الغفلة عن تلك القواعد ستكون ذات

قيمة عظيمة غالبا؛ لأنها سوف تصحح بطريقة عفوية ما فرضتـــه القسمة المنطقية والأقيسة العقلية على نظرية البلاغة وقواعدها التى قررها هؤلاء البلاغيون. وقد وقع لى أثناء دراستي الطويلة علـــى حاشية الطيبـــي على كشاف الزمخشرى، وكذا شرحه أحاديث مشكاة المصابيح[1] صور من تلك الغفلة المستحسنة التى خـــالف فيها الطيبـــي نفسه في كتبه التنظيريـــة الأخـــرى (التبيـــان)[2] ولطائف التبيان[3] وغيرهما[4] .

وقد قمت برصد بعض هذه الغفلات والمخالفات، ومن ثم طوأت لدىّ فكرة هذا البحث.

وإذا كنا قد قررنا أن القدماء قد كفونا مؤنة الاســـتقراء

---

(١) شرح لمشكاة المصابيح هو شرح بلاغي لأحاديث كتاب المشكاة التى جمعها تلميذه الخطيب التبريزى بمشورته ومعاونته؛ وقد قمت بتحقيقه وإعداد فهـــارس بلاغية ولغوية وفهارس عامة شاملة للكتاب، نشرته في ثلاثة عشر مجلداً مكتبـــة نـــزار الباز بمكة المكرمة.

(٢) حققته ونشرته مكتبة نـــزار الباز بمكة في جزأين الأول في المعاني والبيـــان، والثاني في علم البديع وفن الفصاحة.

(٣) حققته ونشرته المكتبة المذكورة آنفا.

(٤) له شرح على التبيان مخطوط

لنصوص اللغة إلى حد كبير واستخلاص أغلب الظواهر اللغوية فيها إن لم يكن قد وقفوا على جميعها في بعض العلوم وذلك بتعرضهم لتحليل نصوص القرآن والسنة على الأخص مع بعض الدواوين -أقول إذا كنا قد قررنا ذلك- فمن هنا نرى أن المهمة الآن أصبحت يسيرة لأن القدماء قد كفونا إلى حد كبير مؤنة المرحلتين (الأولى) الخاصة بتحليل النصوص، و(الثالثة) الخاصة بالتنظير.

وإذا كنا نرى أن أهم أسباب الخلل ترجع إلى "التفاوت البحثي بين التنظير والتحليل، فمن ثم نستطيع أن نقول إن ميدان العمل الأساسى للباحث اليوم هو في مطابقة نتائج المرحلة الأولى (التحليل) لنتائج المرحلة الثالثة (التنظير) والقيام بالاستقراء التام للظاهرة بين التحليل والتنظير حتى نصل إلى نتيجة يمكن الاعتماد عليها إلى حد كبير فى اعتقاد تلك المقولة النظرية أو رفضها أو إعادة النظر فيها .

والمتوقع أن تكون النتائج كالتالى، وذلك بحسب القسمة المنطقية البحتة ـ تلك القسمة التى سوف يُبين الاستقراء ما يصح منها فنستبقيه، وما لا يصح فننحيه :

**النتائج المتوقعة للاستقراء:**

أولاً: اطراد عدد من القواعد اطراداً تاماً مطلقاً .

ثانياً: اطراد عدد من القواعد فى كثير من النصـــوص، وانحرافها فى القليل منها.

ومن ثم يتم تقييد كثير من الأصول والقواعد المزعوم اطرادها مع تبين القاعدة التى تحكم انحراف أصل ما أو عدم اطراده.

ثالثاً: اطراد عدد من القواعد مع ندرة انحرافها وما يشذ عنها من النصوص .

رابعاً: عد اطراد عدد من تلك القواعد بالمرة بحيـــث لا يصح تطبيقه إلا على نصوص متكلفة أو بتصور خاطىء.

ومن ثم يتم تبين خطأ عدد من تلك القواعد والمقولات النظرية والبرهنة على فسادها، أو تبين افتقار بعـــض المقـــولات النظرية إلى المثال التطبيقى وإثبات أن تلك المقولـــة هـــى إفـــراز القسمة العقلية المنطقية البحتة .

خامساً: التوصل إلى بعض الظواهر البلاغية الجديدة وهذا غير مستبعد .

سادساً: اكتشاف خطأ كثير من المفسرين والشراح فـــى

حمل تلك الأصول والقواعد حملاً علـــى بعـــض النصـــوص ولى أعناقها انتصاراً للأصول أو القواعد المزعومة .

سابعاً: بيان خطأ بعض مقولات المعاصرين التى اتسمت بقدر كبير من التعميم فى نسبة الخطأ إلى البلاغيين عامة فى كثير من مباحث البلاغة، اعتماداً على اســـتقراء المقـــولات النظريـــة وحدها لهؤلاء البلاغيين، دون استقراء أو استطلاع لتطبيقـــاتهم الرائعة لاسيما حول القرآن الكريم .

وإذا كنا قد قررنا آنفا أن السابقين قد كفونـــا مؤنـــة مرحلتى التحليل والتنظير إلى حد كبير، فإننا نقرر كذلك أن ممـــا يجعل هذا الأمر فى حيز الممكن، ويبعده عن شبهة المستحيل، أن بوسعه الإفادة من نتائج كثير من البحوث الاستقرائية المعـــاصرة التى تمت بهذا الصدد، وإن أخذت هذه البحوث طابع الاستقراء الجزئى، كأن يتصدى باحث لدراسة ظاهرة بلاغية ما فى شـــعر شاعر أو كاتب بعينه، أو يقصرها على القرآن مثلاً، وما أكـــثر تلك البحوث التى اتخذت القرآن الكريم حقلاً لذلـــك العمـــل الاستقرائى لظاهرة من ظواهره البلاغية.

ولكن الأمر الذى أعرض عنه الكثيرون هو الربط بـــين

نتائج تلك البحوث وما سبق من التنظير البلاغى، فضلاً عن الإفادة من نتائج تلك البحوث فى إعادة تقويم التراث البلاغى وإعادة النظر فى تقعيده وتأصيله .

وهذا وقد اخترت هنا مبحثا من مباحث علم المعانى وهو رعاية حال المتكلم كنواة لتلك الدراسات التى أحاول فيها تطبيق ذلك المنهج الذى ارتضيته للبحث البلاغى، فإن أوفق فما توفيقى إلا بالله، وإن تكن الأخرى فحسبى أنى قد اجتهدت وسعى، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

تعد فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " هى الفكرة الجوهرية التى أثرت تأثيرا كبيرا فى توجيه البحث البلاغى وتحديد كثير من مساراته في شتى عصوره، لقد صارت هذه المطابقة هى غاية البحث فى علمي المعاني والبيان، حيث عرف الأول بأنه **"علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال"**(٥) وعرف الثانى بأنه " **معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق**

---

(٥) الإيضاح للقزويني / تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي .ط مؤسسة مختار ص١٤

مختلفة في وضوح الدلالة عليه ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[٦] بل لقد عرفت بها البلاغة كلها حيث قيل إنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته "[٧].

أما مصطلح الحال فقد كان يرادف في أغلب استعمالاته لدى البلاغيين مصطلح المقام، وكل من المصطلحين يقصد به مجموعة الاعتبارات والظروف والملابسات التي تصاحب النشاط اللغوي أو تلابسه.

ولقد عرفت الحال في تراثنا البلاغي بأنها: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يميز كلامه بميزة تعبيرية خاصة، ومعنى ذلك أن الأحوال أو المقامات هي مجموعة المؤثرات (غير اللغوية) التي تؤثر في لغة الكلام البليغ بحيث تترك فيه سمات تعبيرية توائمها وتتنوع بتنوعها وهذه السمات هي ما سماها السكاكي وغيره في تعريف المعاني السابق بخواص التراكيب[٨]، وهذه الخواص هي ما يقتضي

---

(٦) السابق ص٢٠٢

(٧) السابق ص١٠

(٨) انظر: دراسات في علمي المعاني والبديع – د/ حسن طبل – دار الزهراء –

الحال ذكره، أو ما يعرف بمقتضى الحال حسب اصطلاح هؤلاء البلاغيين.

وتلك الخواص أو المقتضيات هى التى عرضوا لها فى مباحث علم المعانى كالتقديم أو التأخير أو الذكر أو الحذف أو التعريف أو التنكير ...إلخ باعتبارها مقتضيات تتنوع بتنوع الأحوال أو المقامات ويكون لها ـ من ثم ـ أثرها فى حسن الكلام وبلاغته، يقول السكاكى فى ذلك[٩] : "لما تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه، وجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك المتفحص عن تفاصيل المزايا التي بها يقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء في شأنها التسابق والتناضل – أن ترجع إلى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، وانتباهك العجيب الشأن، ناظراً بنور عقلك، وعين بصيرتك، في التصفح لمقتضيات الأحوال في إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة في

---

ص ١٢ – ١٤ .

(٩) السابق ص٢٦٥

معرضها، فهو الرهان الذي يجرب به الجياد، والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد، فتعرف أيما حال يقتضي طي ذكره، وأيما حال يقتضي خلاف ذلك، وأيما حال يقتضي تعرفه: مضمراً، أو علماً، أو موصولاً، أو اسم إشارة، أو معرفاً باللام، أو بالإضافة؛ وأيما حال يقتضي تعقيبه بشيء من التوابع الخمسة، والفصل، وأيما حال يقتضي تنكره، وأيما حال يقتضي تقديمه على المسند، وأيما حال يقتضي تأخيره عنه، وأيما حال يقتضي تخصيصه أو إطلاقه حال التنكير، وأيما حال يقتضي قصره على الخبر".(١٠)

ومن هنا نستطيع أن ندرك قيمة الحال أو المقام وما لها من أثر كبير فى استدعاء تلك الخواص التركيبية أو المقتضيات البلاغية، ومن ثم لا غنى لنا عن استكشاف ذلك الحال أو المقام قبل الولوج إلى أى نص أدبى يراد تحليله، والوقوف على مدى إجادة مبدعه فى اختيار تلك الخواص التركيبية التى تعرف بمقتضى الحال.

وإذا نظرنا إلى كلام البلاغيين في كتب البلاغة النظرية فسوف نجد أنهم إنما يعنون بمصطلح الحال حال المخاطب وحده،

---

(١٠) مفتاح العلوم ص ٢٦٥.

وذلك ظاهر في جميع مباحث البلاغة، وفي حديثهم عن كافة ما انتهت إليه تصوراتهم العقلية من مقتضيات تلك الحال من توكيد وذكر أو حذف وتقديم أو تأخير، أو إيجاز أو إطناب.. إلخ.

والأدلة على ذلك كثيرة لا تحصى، وسنكتفى هنا بذكر بعضها فمن ذلك ما ورد عن البلاغيين في مبحث:

## الخبر وأنواعه

يقسم البلاغيون الكلام إلى خبر وإنشاء، ويعرفون الخبر بإنه ما يحتمل الصدق والكذب، والإنشاء بأنه ما ليس كذلك[11].

ويهمنا أن نتعرض هنا لمبحثين مهمين يتعلقان بمبحث الخبر عند البلاغيين، وهما:

**أولاً: أنواع الخبر.**

**ثانياً: أغراض الخبر**

(١١) انظر تعريف الخبر "المفتاح" ص٢٥٢، الإيضاح ١٦،١٧، التبيان ١/١٤١ ، لطائف التبيان : ٣ كلاهما بتحقيقي ط المكتبة التجارية – مكة المكرمة، وانظر نهاية الإيجاز للرازي ص١٤٩ ط دار العلم للملايين بيروت.

## أولاً : أنواع الخبر

ذكرنا أن البلاغيين ركزوا اهتمامهم في رصد مطابقة الكلام لمقتضى الحال على جانب المخاطب فحسب، وهنا نود أن نشير إلى أن تقسيم البلاغيين للأساليب الخبرية كان مظهراً من مظاهر هذا التركيز، الأمر الذي يدعونا إلى أن نقف وقفة متأنية كى نتعرف الأساس الذي قام عليه هذا التقسيم.

**أما أنواع الخبر فيرى البلاغيون أنها ثلاثة(١٢):-**

(أ)**الخبر الابتدائي:-** وهو ما يكون فيه المخاطب خالى الذهن من الحكم، وهذا الخبر في نظرهم يستغنى في صياغته عن المؤكدات لأن خلو ذهن المخاطب يجعل الخبر يتأكد في نفسه دون الاستعانة بأى أداة من أدوات التوكيد.

(ب)**الخبر الطلبي:** وهو ما يتوجه إلى مخاطب يتردد في قبول الخبر، وهذا يحسن في نظرهم توكيده بمؤكد واحد كى يزيل تردد المخاطب، ويحقق مضمون الخبر لديه.

(ج)**الخبر الإنكارى:-** وهو ما يتوجه إلى مخاطب ينكر

---

(١٢) انظر المراجع السابقة، وانظر المصباح ص١٠٢ والأطول ١/٢٢٤ كلاهما بتحقيقي ط دار الكتب العلمية.

الحكم صراحة، ومن ثم يصبح من اللازم توكيده بمؤكد أو أكثر حسب درجة إنكار من يلقى إليه.

ويستشهد البلاغيون على ذلك بقوله عز وجل ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾(١٣)

فإن هؤلاء الرسل حين ووجهوا بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ وهو أسلوب خبرى فيه من وسائل التوكيد (إن) واسمية الجملة، فلما بالغ أصحاب القرية في التكذيب، ولجوا في الإنكار كرر عليهم الرسل الخبر الأول مضافاً إليه ألواناً جديدة من التوكيد حيث قالوا "ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون" فجاء الأسلوب كما ترى مؤكدا بالقسم في صدره و(إن) واللام واسمية الجملة. فضلاً عن التكرار الذي هو في حد

(١٣) يس : ١٣-١٦

ذاته وسيلة أخرى من وسائل التوكيد.

ويعد البلاغيون الخبر الذي يرد مطابقاً لحال من تلك الأحوال السابقة خبراً وارداً على مقتضى الظاهر أى أنه مراعى فيه ظاهر حال المخاطب، ويرى البلاغيون- تبعاً لذلك - أن الخبر قد يرد مخالفاً لمقتضى الظاهر، وذلك لملاحظ واعتبارات يراعيها المتكلم بحيث تصبح هي الأحوال التى يرد الأسلوب الخبرى وفقاً لمقتضاها.

**فقد ينزل خالى الذهن منزلة المتردد:** وذلك إذا كان في سياق الكلام ما يثير ترقبه وتطلعه للخبر، إذ يصبح هذا الترقب لديه منزلة التردد، وهذا يسوغ تأكيد الخبر له رغم خلو ذهنه، ويمثل البلاغيون لذلك بقوله تعالى: ﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾(١٤) فإنه لما قال ﴿**ولا تخاطبني في الذين ظلموا**﴾ بعد قوله عز شأنه ﴿**واصنع الفلك بأعيننا**﴾ صار المقام مقام تلهف وترقب لمصير هؤلاء الظالمين، ولذا ورد الإخبار بهذا المصير مؤكداً بإن.

**وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر:** وذلك إذا بدا عليه شيء

(١٤) المؤمنون ٢٣/٢٧

من أمارات الإنكار، فيخاطب حينئذ بالخبر مؤكدا في الأمر الذي لا ينكره، ويمثل البلاغيون لذلك بقول حجلة بن نضلة الباهلى:-

**جَاَءَ شَقِيقٌ عارضاً رُمْحَهُ    إن بَنى عَمِّكِ فيهم رِماحُ**[١٥]

فالشاعر لما رأى شقيقاً قد أقبل غير مكترث ببنى عمه، لأنه جاء عارضاً رمحه أى واضعه على عرضه وجاعله على فخذه، اعتبره الشاعر منكراً لقوتهم وسلاحهم، لأن هيئته هيئة المنكر، وإن كان في حقيقته غير منكر، فأورد له الخبر مؤكدا وقال (إن بنى عمك فيهم رماح).

**وقد ينـزل المنكر منـزلة غير المنكر**: وذلك للإيحاء بأن إنكاره لا قيمة له، ولا اعتداد به، ومن أمثلة ذلك قوله جل شأنه: ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾[١٦] فمضمون هذا الخبر أعنى نفى الريب عن كتاب الله أمر ينكره كثير من المعاندين، ولكن القرآن ساق هذا الخبر خالياً من أدوات التوكيد، للإشعار بأنه من الحقائق الواضحة التى يعتبر الإنكار لها والمماراة فيها ضربا من الوهم الذي لا يعبأ به.

---

(١٥) انظر التبيان ١/١٤٤.

(١٦) البقرة : ٢/٢

وهذا يؤكد لنا ما سبق تقريره من أن البلاغيين في دراستهم النظرية لم يلتفتوا في بحثهم للحال إلا إلى حال المخاطب وحده، مما أوقعهم في إهمال حال المتكلم نفسه، وغير ذلك من قرائن الحال القامية والمقالية التى ينبغى أن توضع في الاعتبار.

أمر آخر نحب أن ننبه إليه هنا، وهو أنه ليس من الضرورى أن يكون الباعث على التوكيد مراعاة حال المخاطب. فقد لا يكون هناك مخاطب أصلاً، ويرد أسلوب التوكيد مفصحاً عن وهج انفعالات الأديب واضطرام مشاعره، وعمق إحساسه بموضوع تجربته. ولننظر على سبيل المثال الأبيات التالية لصالح الشرنوبي:

**آمنت أن الحياة أنثى    من طبعها الوصل والصدود**
**وأعجب الأمر في هواها    أنى إلى حبها مقود**
**وأننى رغم ما أقاسى    من حر آلامها سعيد**
**حسبى وحسب الحياة منى    أنى على ظلمها شهيد**

فليس هناك مخاطب أصلا يتوجه إليه الشاعر بتلك

الأبيات، ولكنه يصور مشاعره الخاصة، وتجاربه الذاتية إزاء الحياة التي فطر على حبها، فهو رغم معاناته من ظلمها وقساوتها فنفسه موزعة بين حب جارف لها، وفرق من ضرائها وآلامها، وقد تواردت أساليب التوكيد كما نرى في هذه الأبيات مؤكدة هذه الأحاسيس الخاصة لدى الشاعر، وهى إذن بليغة لأنها طابقت (مقتضى حاله).

ونستطيع أن نقول إن الاستقراء للتراث البلاغي قبل أن تغلب على البلاغة الطريقة التقعيدية التنظيرية الجافة -يبين لنا أن الحال كان يقصد بها ما هو أعم من حال المخاطب الذي استقر عليه البلاغيون في كتب البلاغة التنظيرية.

وهذه هى أنواع الحال التى يدل عليها ذلك الاستقراء

**١ -أحوال المخاطب:**

وذلك من حيث: ذكاؤه أو غباؤه، وتردده أو إنكاره، وطبقته الاجتماعية وطبيعة ثقافته، وميوله وآراؤه المذهبية وعلاقته بالمتكلم أو بموضوع الكلام، وما إلى ذلك، فهذه كلها أحوال ومقامات يتنوع الكلام بتنوعها، بل إن بلاغة الكلام لا تتمثل إلا فى مطابقته لها ومشاكلته إياها.

وهذا ما يقرره بشر بن المعتمر حيث يقول في صحيفته :" ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً ....."[١٧] وهو بعينه ما يصرح به السكاكي حيث يقول:" ومقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ولكل ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"[١٨] .

## ٢- الغرض

فلكل غرض من الأغراض ما يلائمه من صور وما يليق به من الأساليب التي لا تليق بسواه، يقول القاضي الجرجاني موصياً الشاعر بضرورة المشاكلة بين التعبير والغرض: " ولا آمرك بإجراء الشعر كله مجرى واحداً ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك ... بل ترتب كلاً مرتبته، وتوفيه حقه، فتتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف

(١٧) البيان والتبيين ج١ ص ١٣٨.

(١٨) مفتاح العلوم السابق.

مواقعه"[١٩] .

## ٣ـ الظروف والاعتبارات الخارجية المصاحبة للكلام أو الداعية إليه :

من ذلك ـ مثلاً ـ المناسبة التى قيلت فيها القصيدة، أو سبب نزول الآية الكريمة أو البيئة الزمانية والمكانية للنص، أو ما إلى ذلك من اعتبارات لا يمكن إغفال أثرها فى الكلام، أو ضرورة الوقوف عليها والاستئناس بها عند فهمه وتذوقه .

(١٩) الوساطة ص ٣٧

## ٤- أحوال المتكلم:

والواقع أن "حال المتكلم" هى الأساس الأول الذى تتحقق به المطابقة فالأحوال الثلاث السابقة هى بمثابة "الواقع الخارجى" للتجربة، ذلك الواقع الذى لا يكون العمل الفنى رصداً آليا مباشراً له، بقدر ما يعد تصويراً فنياً لرؤية المبدع له، وانفعاله الخاص به، وموقفه المتفرد منه [٢٠].

وبمقدار تعبير العمل الأدبى عن رؤية المبدع وتجربته الخاصة يكون الحكم بالتطابق ومن ثم يكون الحكم بنجاح هذا العمل، بعكس ما إذا لم يراع فى العمل الأدبى إلا المخاطب وحده دون أن يصدر الكلام عن رؤية صادقة، وتجربة حية .

وإذا كان الحال أو المقام بهذه الدرجة من الأهمية للتحليل البلاغى فإننا ندرك بذلك مدى القصور الذى لحق التحليل البلاغى نتيجة لإغفال هؤلاء البلاغيين جزءاً كبيراً من الحال أو المقام كإغفالهم لحال المتكلم على سبيل المثال.

وتطبيقاً للمنهج الذى اقترحناه فى خطة هذا العمل، فإننا

---

(٢٠) انظر : دراسات في علمي المعاني والبديع – د/ حسن طبل – دار الزهراء – ص١٢-١٤

نقرر نتيجة لبعض ما قمنا به من محاولة الاستقراء فى هذه النقطة، أن الباحثين المحدثين[٢١] الذين أطلقوا القول بعدم اهتمام البلاغيين بحال المتكلم إنما أطلقوا هذا القول باعتبار نظرهم إلى ما قرره البلاغيون فى كتب البلاغة النظرية فقط دون مطالعة كافية لمحاولات بلاغي المفسرين الذين فطن بعضهم لهذه النقطة وهى مراعاة حال المتكلم فى تحليلاتهم البلاغية، وهؤلاء كالإمام الزمخشرى ومن تأثر به من المفسرين كالإمام الطيبى على سبيل المثال.

فقد اهتم الطيبى فى تطبيقاته البلاغية خاصة وفى مؤلفاته البلاغية عامة بمراعاة حال المتكلم حيث لم يقصر نظرته فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال على حال المخاطب على نحو ما فعل البلاغيون ويظهر ذلك فى مواضع عديدة من مؤلفاته البلاغية.

فمن ذلك يرى الطيبى أن قوله تعالى على لسان مريم: ﴿أنى يكُونُ لِى غُلامٌ﴾[٢٢] قد روعى فيه حال المتكلم:

---

(٢١) من الباحثين المحدثين الذين انتقدوا ذلك المسلك على البلاغيين الشيخ أمين الخولى في كتابه فن القول ص٢٠١

(٢٢)مريم : ٢٠/١٩

"كأنها من فرط تعجبها ونهاية استبعادها نبذت الوصف وراءها ظهريًّا وأتت بالموصوف وأخذت فى تقرير نعته على أبلغ وجه، أى ما كان أبعد وجود هذا الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف، وهو قريب من الأسلوب الحكيم، ولما كان الاهتمام بشأن النفى فى الثانى أتم آثرت (كان) للإيذان بأن انتفاء الفجور لازم لها وبعيد أن تتصف به بما يخالف العفة لأنها كانت من بيت العفة ومعدن الطهارة "(٢٣).

ومع التفات الطيبى هنا إلى مراعاة الآية لحال المتكلم، فإنه يجعل هذا الحال للمتكلم جزءاً من المقام الذى يربط بينه وبين النظم ربطاً واضحاً فى تحليله لأسلوب تلك الآية الحكيمة، على نحو ما رأينا.

كذلك يأتى كلام الطيبى عن الالتفات، وخاصة الالتفات الواقع فى سورة الفاتحة بياناً كاشفاً لمراعاة حال المتكلم بها، وقد جعل الطيبى الالتفات الواقع فيها مقتضى لتلك الحال، رابطاً بذلك بين نظم السورة والمقام الذى وردت فيه .

---

(٢٣) الطيبـي، فتوح الغيب ٤٧٣ ، تفسير طلعت ق ٩/أ.

فقد مثل الطيبى للالتفات من الغيبة إلى الخطاب بقولـــه: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِين﴾ إلى قولـــه" ﴿إيــاك نعبــد وإيــاك نستعين﴾[٢٤] والحق أن ما ذكره الطيبى هنا فى تحليله للالتفـــات فى الفاتحة يمتاز بروعة أسلوبه فيه ـ عما قاله المفسرون والبلاغيون قبله .

وقد تعرض لبيان نكتة ذلك الالتفات فى حاشيته على الكشـــاف فقال فى تعليقه على قول الزمخشرى "والعبـــادة أقصـــى غايـــة الخضوع والتذلل"[٢٥] وفى إيثار صيغتى أفعل ـ أى أعظم وأقضى ـ إيذاناً لحصول الترقى، وأن الحمد دون العبادة، وإشعار بتفاوت رتب كل من النسبتين على الأوصاف، وهو كذلك لأن الحمـــد شكر على نعمة سابقة فيتقرر عند ذوى الألباب قضيـــة ﴿لئـــن شكرتم لأزيدنكم﴾ فلما حمد العبد النعم السابقة عنت له نعمـــة أخرى بأن كشف الحجاب عن أستار تلك الصفات فتوغل فـــى الشكر فيها وهى: رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، فأجراها حينئذ على المستحق لذلك الحمد، فزيد فى الكشف بأن

---

(٢٤) الفاتحة : ١/ ٢ -٥

(٢٥) الزمخشرى ، الكشاف ١/ ١٠

صار البرهان عياناً، والغائب حاضراً فخاطبه بقوله :﴿إياك نعبد﴾ وفى تضاعيف كلامه (أى الزمخشرى) إيماء إلى هذا المعنى"[٢٦] .

وينقل الطيبى هنا عن ابن جنى قوله " إنما ترك الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى أمد الطاعة قال: إياك نعبد إصراحاً بها، وتقرباً منه"[٢٧]

ثم قال الطيبى: " ويمكن أن يعتبر بلسان أهل العرفان ويقال: إن الحمد مبادىء حركة المريد فإن نفس السالك إذا تزكت ومرآة قلبه إذا انجلت فلاحت فيها أنوار العناية، والعناية هى التى أوجبت الولاية، وتجردت النفس الزكية للطلب، فرأت آثار نعم الله عليها سابغة وألطافه غير متناهية، فحمدت على ذلك، وأخذت فى الذكر، فكشف لها الحجاب من وراء أستار العزة عن معنى رب العالمين، فشاهدت ما سوى الله على شرف الفناء، مفتقرة إلى المبقى، محتاجة إلى التربية فترقت لطلب الخلاص من وحشة الإدبار، وظلمة السكون إلى الأغيار، فهبت لها من

---

(٢٦) الطيبـي، فتوح الغيب ٤٧٣، تفسير تيمور ق٢١ /ق

(٢٧) فتوح الغيب ٤٧٣ ، تفسير تيمور ق٢٢ / ب

نفحات جنات القدس نسمات ألطاف الرحمن الرحيم، فعرجت من هذا المقام بلمعات بوارق الجلال من وراء سجاف الكمال إلى الأحد الصمد المالك الحقيقي، فنادت بلسان الاضطرار في مقام لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، أسلمت نفسي إليك، وألجأت ظهري إليك، وهنا خاضت لجة الوصول، وانتهت إلى مقام العين، فحققت نسبة العبودية فقالت إياك نعبد، وها هنا انتهاء مقام السالك ألا ترى إلى سيد الخلق، كيف عبر عن مقامه هذا بقوله تعالى: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾ فطلبت التمكين بقوله: ﴿إياك نستعين﴾ و﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، واستعاذت من التلوين بقوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقصد مستكملاً ورجع مكملاً "[٢٨] .

ومن ثم، فإن قيمة الالتفات في الآيات تتجاوز عند الطيبى حد التطرية والتنشيط واستمالة المتلقى إلى الإصغاء، فكأنه يرى أن نكتة الالتفات هنا تتمثل فى رعاية حال المتكلم، فالعدول فى الآيات من مقام الغيبة إلى مقام المخاطبة والمشاهدة، يتطابق

(٢٨) فتوح الغيب ٤٧٣ ، تفسير تيمور ق٢٢ / ب

أتم المطابقة مع الحال التى تجددت للعبد بعد مثوله بين يدى مولاه، واستشعاره لربوبيته إياه، وسعة رحمته له فى العاجلة والآجلة، ومالكيته له فى الدنيا والآخرة، فأورثه استشعار الربوبية رغبة فى العبودية، واستشعار النعمة مع التقصير، والرحمة مع التفريط حياء ورغبة واستشعار المالكية فى الأولى والآخرة تذللاً ورهبة، فاستشعر بتلك الأحوال لزوم العبودية له والافتقار إلى مولاه، فتوجه قلبه إلى ربه بالرغبة والرهبة والخضوع والإنابة. ولما كان جماع تلك الأحوال يسمى العبادة، فانطلق اللسان معبراً عن تلك الحال بقوله "إياك نعبد وإياك نستعين" .

وينبغي ألا يعترض هنا بأن هذا الكلام هو كلام رب العزة لا كلام العبد، وذلك لأن هذا الكلام ينسب إلى العبد ويعبر عن حاله من حيث إن العبد مأمور بقول "الحمد لله رب العالمين.. إياك نعبد إلخ) ولذلك قدر بعض المفسرين في أول الكلام (قولوا) أى: (قولوا: الحمد لله رب العالمين.. إلخ)

ولما كان هذا الكلام مقولاً على لسان العباد؛ فمن ثم راعت السورة ذلك، وجاءت مشتملة على هذا الأسلوب المناسب لحال المتكلم به وهو العبد في حال تعرفه على الله،

وتوجهه إليه بالعبادة، فهو في بادىء أمره يحمد غائبا عنه قد عُرف بصفاته، ووصف له، فحمده العبد بتلك الصفات متدرجا ومتنقلاً بين مشاهدها وظلالها حتى تجلت له عظمة تلك الذات، فصار المتحدث عنه كالحاضر المشاهد، وصار الغائب مخاطباً، فتحول من الحديث عنه إلى مخاطبته والإقرار بوحدانيته وعبوديته.

وقد تعرض الزمخشرى لبيان نكتة هذا الالتفات فقال: "ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيقة بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به"(٢٩).

وهذا الكلام واضح كما ترى في التفات الزمخشرى إلى رعاية حال المتكلم بهذا الكلام، وجعل هذا الالتفات مقتضى

---

(٢٩) الكشاف ١/١٠

لتلك الحال.

وكذلك يعلق الطيبى على حديث النبى -صلى الله عليه وسلم- "أيحسب أحدكم متكئا على أريكته يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا فى هذا القرآن، ألا إنى والله لقد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها كمثل القرآن أو أكثر "فيقول : "القسم فى الحديث مؤذن بالغضب الشديد على المنكر، ووصفه بالاتكاء على الأريكة شبعان من هذا القبيل"(٣٠)

نلاحظ أن الطيبي يلتفت هنا إلى حال المتكلم وأثره فى مجيء الحديث على هذا النظم .

والحق أن الإمام شرف الدين الطيبى يعد من أكثر البلاغيين التطبيقيين اهتماما بحال المتكلم حيث أتاحت له تطبيقاته على الكشاف أن يوسع نظرته إلى الحال ليشمل حال المتكلم كذلك، نستطيع أن نتبين ذلك من خلال مقارنة سريعة بين كلامه وكلام معاصره الخطيب القزوينى فى مبحث أحوال الإسناد الخبرى حيث ذكر القزوينى وكذاك الطيبى أن المخاطب

---

(٣٠) الطيبي ، الكاشف عن حقائق السنن، ق٢٠٠/ أ وانظره بتحقيقي لشرح مشكاة المصابيح ط المكتبة التجارية – مكة المكرمة.

المنكر قد ينــزل منــزلة غير المنكر وعكســه، وبعدمــا ذكــر القزوينى النوعين مثالاً لهما عقبهما بقوله: "ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾(٣١) أكد إثبات الموت تأكيدين - وإن كان مما لا ينكر - لتنــزيل المخاطبين منــزلةمن يبالغ فى إنكــار المــوت، لتماديهم فى الغفلة، والإعراض عن العمل لما بعده، ولهــذا قيــل "ميتون" "دون" "تموتون" ...وأكد إثبات البعث تأكيداً واحــداً - وإن كان مما ينكر- لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بــأن ينكر، بل إما يعترف به أو يتردد فيه، فنــزل المخاطبين منــزلة المترددين، تنبيهاً لهم على ظهور أدلته، وحثاً على النظرة فيهــا، ولهذا جاء "تبعثون" على الأصل"(٣٢) وينقل الطيبى ذلك الكــلام السابق للقزوينى فى التبيان مع تصرف يسير فيه، ثم يتبعه بقوله: هذا والذى يقتضيه النظم الأنيق، وتكرير كلمة التراخى فى الرتبة المستدعية للترقى فى الأطوار من لدن قوله: ﴿**ثم خلقنا النطفة**﴾ إلى قوله:﴿**ثم إنكم يوم القيامة تبعثون**﴾ أن تحمل إن على مجــرد

---

(٣١) المؤمنون :٢٣/ ١٥-١٦

(٣٢)الخطيب القزويني: الإيضاح السابق بتحقيقي.

التوكيد بسطاً، فعل المؤمن فى جؤاره ﴿ربنا آمنا﴾ ولما كان الموت هو الوسيلة إلى الوصول إلى نهاية المطالب، وكان مستدعياً لتفكيك ذلك التركيب العجيب الذى من حقه أن يصان منه بقوله: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أكد ذلك التوكيد،وضم مع كلمة التراخى لفظة بعد ذلك، ونحوه رمز جار الله فى قول المنافقين: ﴿إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾[٣٣] .

فالطيبى لم يرتض ما ذهب إليه الخطيب فى الآية، ويرى أنه ينبغى أن تحمل كلمة "إن" فى الآية على بسط الكلام، ويرى أن ذلك هو مقتضى النظم الأنيق، وتحقيق ذلك بالنظر إلى حال المتكلم كما يفعل الداعى فى دعائه بقوله: " ربنا إننا آمنا " فإنه لم يخاطب به منكراً ولا طالباً بل يحقق به تضرعه بين يدى الله، وأنه آمن عن طمأنينة قلب وثبات قدم.

وقد استأنس الطيبى هنا بما رمز به جار الله فى قول المنافقين: "إنا معكم إنما نحن مستهزئون" مما يدل على تأثره فى هذه السمة بالزمخشرى فى كشافه حيث قال الزمخشرى فى قوله

(٣٣) البقرة : ٢/١٤، الطيبي : التبيان ص٥٣.

تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهما فى ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا فى ادعاء أنهم أو حديون فى الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وكيف يقولونه ويطمعون فى رواجه بين ظهرانى المهاجرين والأنصار والذين مثلهم فى التوراة والإنجيل، ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين (ربنا إننا آمنا)، وأما مخاطبة إخوانهم فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر، والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو

رائج عندهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد"(٣٤).

وعليه علق الطيبى على قول الزمخشرى السابق فى حاشيته على الكشاف فقال: "قوله" ألا ترى إلى حكاية الله قول المؤمنين: ربنا إننا آمنا استئناف، وحاصله أن معنى التوكيد الذى تعطيه (إن) ههنا ليس راجعاً إلى المخاطب فى إزالة تردده أو نفى شكه بل إلى المتكلم فى إظهار نشاطه، ووفور ارتياحه إيذاناً بأن المقام خليق بالإطناب، وإبداء ارتياحه ونشاطه وإعلاماً بأن السامع يتلقاه بالقبول ويصغى إليه"(٣٥).

وإذا كان الطيبى قد قرر مراعاة حال المتكلم وكررها فى مواضع كثيرة من كتبه، فإن تلميذه - كذلك على بن عيسى، والذى تلقى على الطيبى شرح كتابه التبيان كما يقرر فى مقدمة كتابه "حدائق البيان فى شرح التبيان" - يزيد هذا الأمر تقريراً، وذلك حينما يشرح قول الطيبى فى الإسناد :" وهو بالنظر إلى المخاطب ثلاثة" فيقول: قوله "بالنظر إلى المخاطب ثلاثة: في هذا التقييد إشارة إلى أن في الإسناد أيضا نظراً إلى غير المخاطب، وهو إما

---

(٣٤) الزمخشرى : الكشاف ١/ ٣٤

(٣٥) الطيبي، فتوح الغيب ٤٧٣، تفسير تيمور ق٥٤

المتكلم أو غيرهما كالتعريض بالثالث، وسيجيء بيانه فى الكناية إن شاء الله تعالى، وإما بالنظر إلى المتكلم فإنه قد يؤكد كلامه ابتداء، وخاصية هذه الطريق فى الإفادة إما الدلالة على كمال العناية والكرامة كما فى قوله تعالى: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ أو على كمال الغضب والسخط كما فى قوله تعالى:﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ..﴾ الآية . هذا إذا كان المتكلم الله عز وجل وأما إذا كان العبد فهو إما لإظهار غاية التضرع والابتهال كما فى قوله:﴿ربنا إننا آمنا فاغفر لنا﴾ أو نهاية الوجل والخوف كقوله:﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ هذا إذا كان الخطاب مع الله، وإذا كان مع الغير فهو إما لإبداء وفور النشاط كما فى قول المنافقين لشياطينهم:﴿إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ أو للإيذان بكمال الخوف والوجل كما فى قول إبراهيم عليه السلام لأضيافه: ﴿إنكم قوم منكرون﴾ أو بكمال الحذر والتوقى كما فى قوله أيضاً: ﴿إنا منكم وجلون﴾ وفى الأمثلة كثرة فحم حولها[٣٦].

(٣٦) على بن عيسى: حدائق البيان: في شرح التبيان، مخطوط ق١٩

وبهذا نتبين مدى السبق الذى أحرزه الطيبى حيث تنبه إلى مراعاة حال المتكلم حيث غفل عنه البلاغيون، وقد تلقى تلميذ الطيبى على بن عيسى ذلك عنه وأودعه شرحه للتبيان كما ترى، فلله در الطيبى فيما سبق إليه .

* * *

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿**رب إني وهن العظم منى، واشتعل الرأس شيباَ، ولم أكن بدعائك رب شقياَ**﴾(٣٧)

قال الزمخشرى " وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها" (٣٨).

ويعلق عليه الطيبى قائلاً: "المقصود فى هذا المقام إظهار

(٣٧) مريم :١٩/ ٤

(٣٨) الكشاف : ٢/٤٠٥

الضعف في البدن وإبداء تساقط القوى" (٣٩).

ويوضح الطاهر بن عاشور الغرض البلاغي للخبر في هذه الآية بتحديد أكثر فيقول: "والخبران من قوله: ﴿**وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً**﴾ مستعملان مجازاً في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأن المخبر بفتح الباء عالم بما تضمنه الخبران"(٤٠).

ومن ثم يتضح لنا أن الغرض البلاغي للخبر هنا هو الاسترحام من الله تعالى ببيان أنه قد بلغ المشيب ولا ولد له يرثه العلم والنبوة ويخلفه في أداء الرسالة ويتضح بذلك أن الكلام جاء مطابقا لحال المتكلم لا حال المخاطب، فهو لم يخاطب جاهلاً بحاله ولا غافلاً عنه.

وكذلك الخبر في قوله تعالى: ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا**﴾فالغرض منه هو التوسل بسابق رحمة الله تعالى إلى ما يرجى من مزيد رحمته.

قال الألوسي: "وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه

---

(٣٩) فتوح الغيب للطيبي مخطوط بدار الكتب ١/٥ تفسير طلعت ، ق٢/٣

(٤٠) التحرير والتنوير ١٦/٩٤

تعالى من الاستجابة عند كل دعوة إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة من كبر السن وضعف الحال؛ فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يخيبه أبداً لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره، وفى هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه"[٤١].

* * *

وفى قوله تعالى على لسان امرأة عمران: **"رب إنى وضعتها أنثى"**[٤٢].

قال الزمخشرى: "فإن قلت فلم قالت إنى وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول (قلت) قالته تحسراً على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً، ولذلك نذرته محرراً للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** تعظيما لموضوعها وتجهيلا لها يقدر ما وهب لها منه، ومعناه: (والله أعلم بالشىء الذى وضعت، وما علق به من عظائم الأمور

---

(٤١) روح المعاني للألوسى ١٦/٦٠

(٤٢) آل عمران ٣/٣٦.

وأن يجعله وولده آية للعالمين) وهى جاهلة بذلك ولا تعلم منه شيئا فلذلك تحسرت.

وقال السمين الحلبى: "رب إنى وضعتها أنثى" لفظ خبر في ضمنه التحسر والتلهف ......ثم قال: "وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحررون الإناث لخدمة الكنائس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رجت أن يكون ما فى بطنها ذكراً فلما وضعت أنثى تلهفت على فوت الأمل وأفزعها أن نذرت ما لا يجوز نذره"[٤٣].

أما عبارة الطاهر بن عاشور فقد كانت أرقى وأوفى وأرحب أفقا فى استجلاء نفسية امرأة عمران فى هذا التعبير القرآنى عن حالتها النفسية حيث قال:

وتأكيد الخبر بإن مراعاة لأصل الخبرية تحقيقاً لكون المولود أنثى، إذ هو بوقوعه على خلاف المترقب لها كان بحيث تشك فى كونه أنثى، وتخاطب نفسها بنفسها بطريق التأكيد، فلذا أكدته ...... وهذا التركيب بما اشتمل عليه من الخصوصيات يحكى ما يضمنه كلامها فى لغتها من المعانى : وهى الروعة

(٤٣) الدر المصون ١/٤٢٥.

والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها فى الإذعان لهذا الحكم ثم تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثم التنقل إلى التحسير على ذلك، فلذلك أودع حكاية كلامها خصوصيات من العربية تعبر عن معان كثيرة قصدتها فى مناجاتها بلغتها"(٤٤)

قصدنا من إيراد تلك النماذج والأمثلة السابقة أن نبين كيف استطاع المفسرون فى تحليلاتهم للنصوص أن يسيروا مع ما تهدى إليه النصوص من رعاية حال المتكلم خلاف لما غفل عنه البلاغيون فى كتب البلاغة النظرية.

والحق أن اهتمامهؤلاء المفسرين بالجانب التطبيقى قد أوقفهم على تصحيح بعض ما انتهى إليه البلاغيون وقرروه فى الجانب النظرى، مما يحدونا إلى ضرورة الالتفات إلى أن الآراء البلاغية قد اختلفت وتفاوتت تفاوتاً بينا بين النظرية والتطبيق، وهذا يعنى أن كثيراً من الانتقادات التى وجهت إلى البلاغة كالقول بتجاهل النظر إلى حال المتكلم تتسم بشيء من التعميم ذلك أنها لا تكاد تنطبق إلا على الجانب النظرى من الدراسة

(٤٤) التحرير والتنوير ٣/٢٣٣

البلاغية فحسب على حين كان المفسرون وبعض شراح الحديث كالزمخشرى، والطيبـــي والألوسى وابن عاشور وغيرهم أرحب أفقاً وأوسع فكرة ممن قصروا أنفسهم على الدراسة النظرية .

ولذا فسوف نقوم فى هذا البحث بدراسة تطبيقية لعدد من النماذج التى روعى فيها حال المتكلم فى سورة البقرة، نحاول أن نستجلى ما فى هذه النماذج من مطابقة واضحة بـــين حـــال المتكلم والمقتضيات الأسلوبية التعبيرية لهذه الحال .

وسوف نستعين- بلا شك - فى هذا البحث بالإضافـــة إلى جهل الباحث الشخصى فى تحليل هذه النصوص، بما ورد عن المفسرين البيانيين كالزمخشرى والطيبـــى والألوســـى والـــرازى والبيضاوى وغيرهم من إشارات بلاغية فى هذه الآيا ت دالة على التفاتهم من الناحية التطبيقية إلى رعاية حال المتكلم، مما يلفتنا إلى ضرورة الاهتمام بالبلاغة التطبيقية، والالتصاق بالنصوص أكثر من العكوف على القواعد والنظريات .

# النماذج المختارة

# لرعاية حال المتكلم في سورة البقرة

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة : ١١)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة : ١١)

جملة : (إنما نحن مصلحون) هي مقول قول المنافقين، وقد جاءت مطابقة لحالهم أتم المطابقة، وقد يتصور ابتداء أن الأسلوب قد تمحض لرعاية حال المخاطبين وهم المؤمنون الناهون لهم عن الإفساد في الأرض، ونحن لا ننكر أن الأسلوب قد روعيت فيه المطابقة لحال المخاطب، فالمخاطبون بقول المنافقين (إنما نحن مصلحون) هم المؤمنون، وهم يتهمون المنافقين بالإفساد في الأرض، منكرين تمام الإنكار أن يكونوا على أدنى درجة من الصلاح بله الإصلاح، ولذا فإن المناسب لحال هؤلاء المخاطبين أن يؤكد لهم الكلام على هذا النحو بأسلوب القصر الذي قصر فيه المنافقون أنفسهم على صفة الإصلاح، فكأن أقوالهم وأفعالهم جميعا قد تمحضت إصلاحا ونصحا.

قال الزمخشري: و(إنما) لقصر الحكم على شيء، كقولك: إنما ينطلق زيد، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد كاتب، ومعنى (إنما نحن مصلحون) أن صفة المصلحين

خلصت لهم، وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه من وجوه الفساد"[٤٥] .

ولكن إذا كان كلام المنافقين قد جاء مراعيا حال المخاطبين على هذا النحو؛ فإننا نقرر أنه في الوقت نفسه لا يخلو من رعاية حال المتكلمين أنفسهم، بل لعل هذا هو المقصود الأول المقتضى لمجيء الكلام على هذا النحو، وبهذا الأسلوب.

وذلك لأن المنافقين متهمون بالإفساد في الأرض من قبل المؤمنين "وكان فساد المنافقين في الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار، ويمالئونهم على المسلمين بإفشاء أسرارهم إليهم، وإغرائهم عليهم، وذلك مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم، فلما كان ذلك من صنيعهم مؤديا إلى الفساد، قيل لهم: لا تفسدوا، كما تقول للرجل : لا تقتل نفسك بيدك، ولا تلق نفسك في النار إذا أقدم على ما هذه عاقبته"[٤٦] .

فالمنافقون يداخلون كلا من المؤمنين والكافرين، ويترددن على الفريقين مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

---

(٤٥) الكشاف ٣٣/١ ط دار المعرفة .

(٤٦) الكشاف ٣٣/١

فلما اطلع المؤمنون منهم على تلك الحال وعلموا ما يؤول إليه من الإفساد في الأرض نهوهم عن ذلك، فزعم المنافقون أن موالاتهم لكلا الفريقين إنما هو بغية الإصلاح بين الفريقين، وذلك ما ذكره ابن كثير وغيره في تفسيره، وساق بإسناده عن ابن عباس قال: "وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون" أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب"[47].

ويتضح من ذلك أن حال هؤلاء المنافقين أنهم يشعرون باتهام المؤمنين لهم بالإفساد عن طريق موالاة الكافرين، وهذه التهمة تقدح في إيمانهم وتظهر فساد اعتقادهم، وهم حريصون كل الحرص على الظهور أمام المؤمنين بمظهر الإسلام والإصلاح؛ ومن ثم حرصوا أن يدفعوا عن أنفسهم تلك التهمة بأروع أسلوب، وأبلغ بيان، حيث ادعوا أنهم مبرؤون من تلك التهمة، وأنهم لا ينسبون إليها بحال، وأن أقوالهم وأفعالهم قد تمحضت إصلاحا ونصحاً للمؤمنين، وأن إصلاحهم ونصحهم أمر ظاهر معلوم لا مراء فيه.

---

(٤٧) ابن كثير ١/٥٤ ط دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

قال الشيخ عبد القاهر: "دخلت "إنما" لتدل على أنهم حين ادّعوا لأنفسهم أنهم مصلحون، أظهروا أنهم يدّعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوماً، ولذلك أكد الأمر في تكذيبهم والردّ عليهم، فجمع بين "ألا" الذي هو للتنبيه، وبين "إن" الذي هو للتأكيد، فقيل. "ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون"[٤٨]

ونستطيع أن نقرر من خلال السياق أن حال المنافقين كان مزيجاً بين الشعور بالتهمة ومحاولة الدفع عن أنفسهم بأبلغ جواب وأفصحه، مع ما غلب على أنفسهم من اعتقاد الصلاح والإصلاح في محاولة منهم لتغييب ضمائرهم، واستمراء باطلهم، فهم قوم قد انتكست فطرتهم وانقلبت الحقائق في أعينهم، فصاروا يرون الحق باطلا، والباطل حقاً، والإصلاح إفسادا والإفساد إصلاحا.

ومن ثم يقرر الحق سبحانه أنهم قد سلبوا الشعور والإدراك (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) "يقول ألا إن هذا الذي يعتمدونه، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد،

---

(٤٨) دلائل الإعجاز / ط الخانجي ص٣٥٨

ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً"[٤٩] .

ولذا جاءت الآية بهذا الأسلوب معبرة عن حالهم فهم لغياب شعورهم وإدراكهم يتصورون أن ما يفعلونه إصلاح لا شك فيه، وفي محاولة منهم لدفع التهمة عن أنفسهم يجعلونه بمثابة الأمر الظاهر المعلوم الذي لا ينكر عن طريق قصر أنفسهم على الإصلاح وحده الذي لا تشوبه شائبة فساد ولا إفساد ومن ثم نقرر أن رعاية حال المخاطب لا تنفك عن رعاية حال المتكلم فالمتكلم هنا وإن كان مراعيا حال المخاطب من حيث توكيد الكلام له على هذا النحو لدفع ما اتهم به؛ فإن مجيء الأسلوب على هذا النحو إنما يدل في الوقت نفسه على شعور المتكلم بالتهمة واجتهاده في دفعها عن نفسه الأمر الذي يستدعى أن يميز كلامه بهذه الخصيصة أو الميزة التعبيرية.

كذلك فقد جاء أسلوب القصر المؤكد في هذه الآية معبرا من جهة أخرى عن فرط ثقتهم الكاذبة في أنفسهم أنهم لا يكون منهم إلا الإصلاح التام.

ومن ثم نرى من خلال هذا المثال أن الكلام قد يمتزج فيه رعاية

---

(٤٩) ابن كثير ١/٥٤

الحالين حال المخاطب وحال المتكلم في آن واحد امتزاجا تاماً بحيث لا يمكن التفريق بينهما؛ لأن رعاية حال المخاطب تكون في الوقت نفسه دالة على حال للمتكلم يمثل موقفه تجاه هذا المخاطب، ومن ثم يأتي كلامه معبراً عن هذا الموقف أو تلك الحالة النفسية التى يكون عليها بطريقة تلقائية لا شعورية يُتعرف منها على خلجات النفوس ومكنون الضمائر.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ١٣)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

(البقرة : ١٣)

جملة (أنؤمن كما آمن من السفهاء) مقول قول المنافقين، وهى مطابقة تمام المطابقة لحالهم، كاشفة عمّا انطوت عليه نفوسهم من الكبر والعنجهية والاغترار بما هم عليه من الباطل.

وذلك أنهم يعتقدون أنّ ما هم عليه من ممالأة الكافرين وموالاتهم، والتردد بينهم وبين المؤمنين هو الخير وفيه إصلاح الأمور، وذلك لأنه يحقق لهم ما يريدونه من مداراة المؤمنين، وخداعهم، والانتفاع بما لديهم من الخير المادى، وأمن جانبهم وقوتهم، مع الخوض في الباطل مع أهل الكفر والضلال ومشايعتهم على ما هم فيه من الباطل.

فهم يريدون أن يسلكوا طريقا وسطا بين الإيمان والكفر، **﴿ويقولون نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، ويريدون أن**

يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾(٥٠).

ويعتقدون بذلك أن طريقتهم هذه هى الطريقة الصحيحة والسبيل الأقوم؛ ولذا تجدهم (إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) أى كما آمن المؤمنون المخلصون إيماناً صحيحا قويما بـإخلاص دينكم لله وموالاة المؤمنين، وترك موالاة الكافرين- عدّوا ذلك سفها وحمقا وجهالة، ومن ثم كان جوابهم: ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾

ونلاحظ أن الخصائص التعبيرية لهذا الجواب جاءت مطابقة لحال هؤلاء المتكلمين أتم المطابقة.

وذلك أن "الاستفهام في (أنؤمن) في معنى الإنكار، واللام في (السفهاء) مشار بها إلى الناس، كما تقول لصاحبك: (إن زيداً قد سعى بك) فيقول: (أوقد فعل السفيه)، ويجوز أن تكون للجنس، وينطوى تحته: الجارى ذكرهم على زعمهم واعتقادهم لأنهم عندهم أعرق الناس في السفه"(٥١) فهم لكبرهم وعنجهيتهم واغترارهم بطريقتهم الفاسدة يستنكرون أن يؤمنوا

(٥٠) النساء: ٤/١٥٠.

(٥١) الكشاف ١/٣٤

كما آمن المؤمنون الصادقون المخلصون، وأن يسلكوا طريقتهم في ترك موالاة الكافرين، ويسجلون على هؤلاء المؤمنين صفة السفه بذلك الإيمان، وسلوك تلك الطريقة، فيوقعون صفة (السفهاء) مكان الاسم (الناس) حيث (قيل لهم آمنوا كما آمن الناس).

ومن ثم نرى كيف جاءت الآية رعاية لحال هؤلاء المتكلمين دالة على تعجبهم، واستنكارهم للأمر، واحتقارهم للمؤمنين، وتسفيههم إياهم.

وهذه كلها أحوال للمتكلمين جاءت الآية بأسلوبها رعاية له.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٤)

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة : ١٤)

سبق الكلام عنها فيما سبق نقله عن الطيبي والزمخشري في الجزء الممهد للبحث وشبيه بها في رعاية حال المتكلم قوله تعالى في سورة البقرة أيضاً الآية : ٧٦

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

أخبر الله تعالى عن حال هؤلاء المنافقين أنهم إذا لقوا المؤمنين قالوا (آمنا) معبرين بالجملة الفعلية الدالة على مجرد حدوث الإيمان دون رسوخه وثبوته، ودون انشراح صدر به، وذلك كما يسأل الوالد ولدا له مقصرا في أداء الصلاة -غير راغب فيها ولا حريص عليها- عن تأديته لها، فيقول: (صليت) أى فعلت ما طلبت على غير رغبة منه ولا انشراح بها. ثم تنتقل الآية إلى بيان الصورة المضادة لحال هؤلاء المنافقين حينما يخلو بعضهم ببعض ويرجعون إلى أوليائهم في الكفر، فحينئذ يبدون لهم

حرصا على كفرهم، وتصلباً في دينهم الباطل، فينكر بعضهم على بعض ما يحدث به بعضهم المؤمنين مما أنزل الله تعالى في كتبهم مما يصدقه ما جاء به النبي ﷺ منكرين عليهم في ذلك لئلا يتخذه المؤمنون حجة عليهم يحاجونهم بها عند الله.

وبنحو ذلك قال الزمخشري: (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما بين لكم في التوارة من صفة محمد، أو قال المنافقون لأعقابهم يرونهم التصلب في دينهم: أتحدثونهم، إنكارا، عليهم أن يفتحوا عليهم شيئا في كتابهم فينافقون المؤمنين، وينافقون اليهود .."(٥٢) .

(٥٢) الكشاف ١/٧٧

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

(البقرة : ٢٣-٢٤)

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة : ٢٣-٢٤)

المتكلم في هاتين الآيتين هو الحق سبحانه وتعالى، والمقام مقام تحد وتعجيز لهؤلاء الكافرين المرتابين فيما أنزل الله على رسوله أن يأتوا هم ولو بسورة قصيرة من مثله، ولذلك جاءت (سورة) منكرة لتعم وتصدق على أقصر سورة من جنس هذا القرآن، وتتوالى في هذا السياق الأوامر الإلهية التي جاءت تفرض التعجيز والتحدى (فأتوا – وادعوا – فاتقوا) فقد اكتفى الله تعالى منهم بالإتيان بأى سورة قصيرة أو طويلة، وأن يستعينوا بشهدائهم من الجن والإنس. ثم تظهر المبالغة في التحدى والتعجيز في قوله تعالى (ولن تفعلوا) بصيغة المضارع المنفى بلن التأبيدية إمعانا في التحدى.. ثم يأتي بعد ذلك التوعد بالنار والعذاب غاية في البلاغة، وذلك بأمرهم بالاستعداد لهذه النار واتقائها مع كونها بهذا الوصف المهول وقودها الناس والحجارة. وإذا كان ذلك كله

وغيره من الوسائل التعبيرية التى اشتملت عليها الآية قد جاء مناسبا ومطابقا لحال هؤلاء الجاحدين المرتابين الذين يُراد تعجيزهم وإغاظتهم وتبكيتهم والسخرية منهم، مما يعد رعاية لحال المخاطبين؛ فإن الآية في الوقت نفسه تعبر عن مقام التحدى للحق سبحانه وتعالى إزاء هؤلاء الجاحدين المعاندين، وذلك واضح في كل الوسائل التعبيرية السابقة التى جاءت رعاية لحال المخاطب، فقد جاءت في الوقت نفسه رعاية لمقام المتكلم سبحانه، فتكرر الأوامر دال على التحدى، وتنكير السورة دال على الاستهانة بهم والسخرية بهم مع المبالغة في تحديهم، كما تتضح تلك السخرية من المخاطبين من إيراد الكلام بلفظ (إن) الدال على الشك (إن كنتم في ريب) (إن كنتم صادقين) مما يدل على سخريته سبحانه من ادعاءاتهم الكاذبة بالتشكك في كتابه وصدق رسوله، وذلك لكونهم يوقنون بصدقه في قرارة نفوسهم، ثم يجحدون عنادا واستكبارا كما قاله تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً**﴾(٥٣) .

كذلك تظهر المبالغة في التحدى في تأبيد النفى (بلن)،

---

(٥٣) النمل : ١٤/٢٧

كما تظهر كذلك في توعدهم بالنار، وأمرهم باتقائها ثقة بعجزهم عن تحقيق ما طلب منهم، هذا مع المبالغة في تخويفهم وإرهابهم ببيان فظاعة هذه النار، وقد جاء هذا كله رعاية لمقام المتكلم وما هو عليه من غضب وسخط تام على هؤلاء الكافرين ولذلك ختمت الآية بتسجيل جريرتهم وتهمة الكفر عليهم بإيقاع الاسم الظاهر (الكافرين) مكان المضمر.

وقد التفت الزمخشرى إلى موقف التحدى في هذه الآية وعبر تعبيرا جميلا عن بعض صوره وهى تحدى الجميع بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم، فقال: "المعنى: وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبذا مما يماثله ويجانسه، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله أن يقال: وإن ارتبتم في أن محمداً منزل عليه فهاتوا قرآنا من مثله، ولأنهم إذا خوطبوا جميعاً وهم الجمّ الغفير بأن يأتوا بطائفة يسيرة من جنس ما أتى به واحد منهم **كان أبلغ في التحدى من أن يقال لهم**: ليأت واحد آخر بنحو ما أتى به هذا الواحد، ولأن هذا التفسير هو الملائم لقوله : (وادعوا شهداءكم) والشهداء جمع

شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة"[٥٤] .

ومن ثم يظهر لنا واضحا أن رعاية حال المخاطب لا تنفك عن رعاية حال المتكلم أو مقامه[٥٥] ، وغالبا ما يكونان متلازمين، بحيث يمكن توظيف كل الخصائص التعبيرية للدلالة على الحالين معاً، كما ظهر في هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات.

(٥٤) الكشاف ١/٤٨-٤٩

(٥٥) استعملنا كلمة المقام في حق الحق تبارك وتعالى نظرا لأن الحال تشتمل على معنى الاستحالة أو التحول من حال إلى حال مما قد يوقعنا في إشكال عقدى من جهة أن صفات الله تعالى ثابتة لا يجوز عليها التحول والتغير، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾

(البقرة : ٢٦)

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة : ٢٦)

هذه الآية الكريمة تشتمل على وجوه من رعاية حال المتكلم أو مقامه:

الأول: رعاية مقام(٥٦) الحق سبحانه فيما تكلم به عن نفسه سبحانه، وهو يشمل الآية كلها دون قول الذين كفروا.

الثاني: رعاية حال الكفار فيما حكى القرآن عنهم: (ماذا أراد الله بهذا مثلا).

أما الأول فهو يبين مقام الحق سبحانه في رده على هؤلاء اليهود والمشركين في استنكارهم أن يضرب الله تعالى المثل بالأشياء الحقيرة.

(٥٦) عبرنا بلفظ المقام بالنسبة للحق سبحانه تحاشيا من لفظ الحال الموهم للاستحالة والتحول مما لا يليق به سبحانه.

وهذه الآيات تشي بأن المنافقين الذين ضرب الله لهم مثل الذي استوقد ناراً ومثل الصيب من السماء فيه ظلمات ورعـــد وبرق - وربما كان اليهود كذلك والمشركون - قد اتخذوا مـــن ورود هذه الأمثال في هذه المناسبة، ومن وجود أمثال أخـــرى في القرآن المكي الذي سبق نـــزوله وكان يتلى في المدينة، كـــالذي ضربه الله مثلا للذين كفروا بربهم "كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون".. وكالذي ضربه الله مثلا لعجز آلهتهم المدعاة عن خلق الذباب: "إن الذيـــن تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يســـلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه. ضعف الطالب والمطلوب".

نقول: إن هذه الآيات تشي بأن المنافقين- وربما كـــان اليهود والمشركون- قد وجدوا في هذه المناسبة منفذا للتشـــكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بمـــا فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عـــن الله، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك والبلبلة التي يقوم بهـــا المنـــافقون

واليهود في المدينة، كما كان يقوم بها المشركون في مكة.[٥٧]

حيث قالوا : "ما يستحى رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت"[٥٨] .

فجاءت هذه الآيات دفعاً لهذا الدس، وبياناً لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيراً لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطميناً للمؤمنين أن ستزيدهم إيماناً.

(إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما، بعوضة فما فوقها"..[٥٩]

نلاحظ أن الآية تبدأ بالتوكيد الذي يدل على عظمة المتكلم وجلاله وقوة خطابه وصلابته في تأكيد أن ما يقرره الحق سبحانه هو الحق الذي لا مرية فيه، وأن حقارة الأشياء أو صغرها لا تمنع رب العزة جل وعلا من ضرب المثل بها تعليما لعباده وبيانا لهم، وهل يستحى الخالق من خلقه الذي هو دليل إعجازه؟ لا سيما أن المعجزة واحدة في الصغير والكبير، وهي

---

(٥٧) الظلال ص ٥٠.

(٥٨) الألوسى : روح المعاني ص١/٢٠٦ ط إحياء التراث العربي ببيروت.

(٥٩) الظلال ص ٥٠.

معجزة الخلق والحياة والروح التى تدب في كل كائن حى صغير أو كبير دون أن يقف أحد على كنهها وحقيقتها **﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾**(٦٠) .

"فالله رب الصغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل. إنها معجزة الحياة. معجزة السر المغلق الذي لا يعلمه إلا الله. على أن العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنما الأمثال أدوات للتنوير والتبصير. وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره. والله -جلت حكمته -يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس."(٦١)

وهذا التوكيد وإن كان قد روعى فيه حال المخاطبين المنكرين أو المتشككين؛ فإنه في الوقت نفسه قد جاء رعاية لمقام المتكلم سبحانه تعظيما وتوقيرا وإجلالاً وتنزيها لنفسه سبحانه عما يدعيه الكافرون.

(٦٠) الإسراء : ٨٥/١٧

(٦١) الظلال ١ / ٥٠.

ومما يدل على رعاية مقام المتكلم كذلك في الآية: مبالغة رب العزّة جل وعلا في اختيار أعظم الأشياء التى يضرب بها المثل احتقارا وضآلة ليمثل بها، ويبين أنه لا يستحى من ذكرها إمعانا في تحدّى هؤلاء الكافرين، وإمعانا في توبيخهم وعدم الالتفات إلى سخافاتهم، بل على العكس من ذلك يبالغ في تقرير ما نفوه وما لم يرضوا به غير عابىء بما تمليه عقولهم وقلوبهم المريضة.

ويظهر ذلك كله من اختيار كلمة (بعوضة) وهى من أصغر الحشرات وأحقرها، ثم الترقى إلى ذكر ما فوقها (والمراد بالفوقية إما الزيادة في حجم الممثل به فهو ترق من الصغير للكبير، وبه قال ابن عباس، أو الزيادة في المعنى الذي وقع التمثيل فيه، وهو الصغر والحقارة؛ فهو تنزل من الحقير للأحقر"(٦٢) .وهذا الأخير هو ما نرجحه لدلالة السياق عليه، فهو إمعان في التحدى، ومبالغة في الاستهزاء بالكفار وعدم المبالاة بأفكارهم واعتقاداتهم الفاسدة.

ومما يتعلق بمقام المتكلم في هذه الآية كذلك قوله سبحانه وتعالى "فأما..... وأمّا" في بيان حال كل من الفريقين المؤمنين

---

(٦٢) الألوسى : روح المعاني ٢٠٧/١

والكافرين "وأما" حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب بالفـــاء وفائدته في الكلام أن يعطيه فضل توكيد تقول زيد ذاهب فـــإذا قصدت توكيد ذاك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب وأنه منه عزيمة قلت أما زيد فذاهب ولذلك قال ســيبويه في تفســيره مهما يكن من شيء فزيد ذاهب وهذا التفسير مدل لفائدتين بيان كونه توكيدا وأنه في معنى الشرط ففى إيراد الجملتين مصدرتين به وإن لم يقل فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولـــون إحمـــاد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق ونعى على الكافرين إغفالهم حظهم وعنادهم ورميهم بالكلمة الحمقاء.(٦٣) .

وقد التفت الزمخشرى في هذا النص السابق إلى رعايـــة الآية مقام المتكلم سبحانه، وبيان ذلك في الخصائص الأســـلوبية للآية التى طابقت بها هذا المقام فالمقام هنا كما بينه الزمخشـــرى هو مقام إحماد لأمر المؤمنين، ونعى على الكافرين، وهو ما أفاده التوكيد الذي دلّت عليه (أما) في الموضعين.

هذا بالنسبة للموضع الأول وهو رعاية مقـــام المتكلـــم سبحانه، أما بالنسبة للموضع الثاني، وهو رعاية حال الكـــافرين

---

(٦٣) الكشاف ١/٥٧

الذين حكى القرآن كلامهم في قولهم "ماذا أراد الله بهذا مثـــلاً" فإنه واضح الدلالة في الكشف عن حال هؤلاء الكافرين وســـوء أدبهم مع الله تعالى، وجرأتهم عليه، وتبجحهم في مقالتهم، وقد جاءت صياغة الآية مطابقة لحال هؤلاء المتكلمين بهذه المقولـــة، فالاستفهام هنا (استفهام إنكار، أى: بمعنى النفى)(٦٤).

فقولهم "ماذا أراد الله بهذا مثلا: استرذال واسحقار كما قالت عائشة رضى الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص: "يا عجبا لابن عمرو هذا"(٦٥).

فالإشارة في الموضعين إنما أريد بها التحقير والاستهجان والاسترذال.

وكفى بذلك دلالة على حالهم في حديثهم عن كلام الله تعالى مما هو عليه من الجرأة والوقاحة وسوء الأدب مع الله تعالى. فسؤالهم هذا "سؤال المحجوب عن نور الله..

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمتـــه، المقطـــوع الصلة بسنة الله وتدبيره. ثم هو سؤال من لا يرجو لله وقاراً، ولا

---

(٦٤) حاشية الصاوى على الجلالين ١/٢٦ ط دار الكتب العلمية ببروت.

(٦٥) الكشاف ١/٥٧ .

يتأدب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب. يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله[٦٦] .

ومهما يقال في توجيه هذا الأسلوب الإنشائي (ماذا أراد الله بهذا مثلا) إلى رعاية حال المخاطب؛ فإنه يبقى واضح الدلالة وصريحها في رعاية حال المتكلم فهي كلمة تهكم وسخرية واستهزاء تعبر عن كفره وسوء معتقده.

ولعله لا يخاطب أحداً بل يقولها مع نفسه عند سماعه لتلك الأمثال القرآنية.

(٦٦) الظلال ١/٥٠/٥١

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى
اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾

(البقرة : ٥٦)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (البقرة : ٥٦)

هذا جزء من سياق طويل في سورة البقرة يعدد الله تعالى فيه جرائم بنى إسرائيل، وتعنتهم وسوء أدبهم مع رسولهم موسى عليه السلام، وكلامهم هنا جاء معبرا تمام التعبير ومطابقا لحال نفوسهم الغليظة الجاسية التى لا تؤمن بعالم الغيب، ولا تعرف إلا ما تحسه بجوارحها، فليس لديهم شفافية الروح النافذة خلف حجب المادة، والطافية فوق كثافتها.

ولكن إسرائيل هي إسرائيل هي هي كثافة حس، ومادية فكر، واحتجابا عن مسارب الغيب.. فإذا هم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذي طلب هذا هم السبعون المختارون منهم؛ الذين اختارهم موسى لميقات ربه- الذي فصلت قصته في السور المكية من قبل- ويرفضون الإيمان لموسى إلا أن يروا الله عيانا. والقرآن يواجههم هنا بهذا التجديف الذي صدر من آبائهم، لينكشف تعنتهم القديم الذي يشابه تعنتهم الجديد مع الرسول الكريم، وطلبهم الخوارق منه، وتحريضهم بعض المؤمنين على طلب

الخوارق للتثبت من صدقه:

**﴿وإذ قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون. وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**.. إن الحس المادي الغليظ هو وحده طريقهم إلى المعرفة.. أم لعله التعنت والمعاجزة..

والآيات الكثيرة، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة الجاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطهرتهم إفسادا عميقا. وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد: استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمرادا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة.. وهكذا كانت إسرائيل، وهكذا هي في كل حين..

ومن ثم يجدفون هذا التجديف. ويتعنتون هذا التعنت:

﴿**وإذا قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتـــى نـــرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**﴾.[67]

ومما يدل على مطابقة الصياغة التعبيرية في هذه الجملـــة لحال اليهود المتكلمين بها:

قولهم: (يا موسى) فيه من الجرأة وسوء الأدب مع نبيهم ما فيه، حيث نادوه باسمه لا بالرسالة أو النبوة إشـــعاراً بتعليـــق الإيمان بذلك على تحقق ما طلبوه منه تعجيزا أو تعنتا.

قولهم: (لن نؤمن) نفوا إيمانهم في الاستقبال على الدوام نفيا قاطعا إن لم يتحقق لهم مطلوبهم مما يدل على تعنتهم.

قولهم: (نؤمن لك) اللام من (لك) إما لام الأجـــل، أو للتعدية بتضمين معنى الإقرار على أن موسى مقَرٌّ له، والمقرب به محذوف، وهو أن الله تعالى أعطاه التوراة، أو أن الله تعالى كلمـــه فأمره ونهاه"[68] .

وعلى كلا المعنيين فهى دالة على الجرأة والسفاهة وسوء

---

(٦٧) الظلال ١ / ٧٢ .

(٦٨) الألوسي : ١/٢٦١ - ٢٦٢

الأدب مع نبيهم، فعلى المعنى الأول: (لن نؤمن لك أى لأجلك) ففيها عدم توقيرهم لنبيهم وضعف مكانته ومحبته في نفوسهم، فهم لن يؤمنوا لأجله.

والحق أن في أخلاق الرسول العظيم، والنبى الكريم ما يجعل أتباعه يؤمنون لأجله لمن عقل أن مثل هذا الخلق، ومثل هذا الكرم والفضل لا يكون إلا لنبي مرسل من عند الله، ولكن اليهود لا يعقلون.

وأما على المعنى الثاني: أى (لن نقر لك) على أن تكون اللام لمجرد التعدية، فهى ظاهرة في الدلالة على الجرأة والتعنت والتعجيز.

قولهم: (حتى نرى الله جهرة) أكدوا الرؤية بكونها جهرة ومعنى (جهرة: عيانا، وهى مصدر من قولك: جهر بالقراءة والدعاء، كأن الذي يرى بالعين جاهر بالرؤية، والذي يرى بالقلب مخافت بها، وانتصابها علم المصدر لأنها نوع من الرؤية، فنصبت بفعلها كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس[69] أو على الحال بمعنى ذوى جهرة، وقرى جهرة بفتح الهاء، وهى إما مصدر

---

(٦٩) أى في قولك (جلست القرفصاء)

كالغلبة، وإما جمع جاهر"[٧٠] .

وهذا كله واضح في الدلالة على تعنتهم مع نبيهم وتجرئهم عليه واشتراطهم عليه شروطا وقيودا حتى يؤمنوا به فقد اشترطوا رؤية الله، واشترطوا أن تكون رؤية حسّ جهرة لا رؤية قلب ولا منام[٧١] أو يكون المعنى أنهم قالوا ذلك مجاهرين به غير مستحيين ولا مبالين بشأن نبيهم وما يليق به من وجوب التأدب في خطابه، فيكون المعنى: (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله مجاهرين بقولهم هذا غير مخافتين ولا مستحيين).

ومن ثم نتبين كيف جاءت الآية رعاية لحال المتكلمين مطابقة لذلك الحال أتم المطابقة.

(٧٠) الكشاف ١/٦٩-٧٠

(٧١) انظر الألوسي ١/٢٦٢

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

(البقرة : ٦١)

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة : ٦١)

الأسلوب في هذه الآية شبيه بالآية السابقة[٧٢] ، ويزيد عليه في دلالته على حال المتكلم دلالته على الضيق والضجر والتبرم بابتلاء الله تعالى لهم وكراهيتهم للصبر على أمره[٧٣] وجحودهم لنعمه فهو ينزل عليهم المن والسلوى يحصلونهما بلا عناء ولا مشقة وهما طعامان طيبان لذيذان، ولكن نفوسهم الدنيئة البطرة تتبطر على نعمة الله تعالى أشرا وبطرا وضجرا، ويعلنون ذلك في جرأة تامة وعدم مبالاة وتبجح واضح بهذا

(٧٢) انظر الألوسى: ١/٢٧٣

(٧٣) السابق

الأسلوب الدال على النفى القاطع في المستقبل: (لن نصبر على طعام واحد) وتتوالى الدلالات في الآية على سوء أدبهم مع الله تعالى ومع النبي عليه السلام في قولهم: (فادع لنا ربك) فقولهم (ربك) بصيغة المخاطب المفرد، يلمح إلى استنكافهم عن الاعتراف بربوبته حتى ينجز لهم ما سألوه، فكأنه سبحانه رب موسى وحده، لا ربهم ورب كل شيء.

وفي تعدادهم لما (تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) دال على مدى ما بلغوه من الدناءة وسوء الأدب واللجاجة والإلحاح في الطلب والتعنت فيه، فلو أنهم سألوا الله تعالى أن يكثر لهم الخير، ويبارك لهم في الرزق، لأعطاهم ما ينفعهم ويصلحهم، ولكنهم أخذوا يقترحون على الله وعلى نبيهم ويعددون ما تهفو إليه النفوس الدنيئة من دنيء الطعام، ولذلك كان جواب رسولهم عليه السلام لهم حكيما حيث قال: "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم".

وقد جاء هذا الكلام أيضا مراعيا لحال المتكلم وهو- هنا- موسى عليه السلام فتصدير الكلام بهمزة الاستفهام دال

على استنكاره[٧٤] وتعجبه لطلبهم ودنو نفوسهم وانشغالهم عما انتدبهم الله تعالى إليه من معالى الأمور وعظيمها.

وقوله (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) يدل على عدم عبئه بكلامهم واحتقاره له فهو (إما بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد، لا يستحق، فحق موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوا فيها .... وإما بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها..... عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة ... حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها... ويكون هذا من موسى عليه السلام- تأنيباً لهم وتوبيخاً... [٧٥] وهذا هو المترجح لدينا بدلالة السياق فكأنه ردهم لمصر التى تعودوا الذلة والدناءة فيها على يد فرعون فلما تاقت نفوسهم لما تركوه فيها، أمروا بالرجوع إليها تأنيباً وتوبيخا وتقريعاً[٧٦] .

ومن ثم ترى كيف راعت الآية حال المتكلم من أكثر من وجه كما رأينا.

---

(٧٤) انظر الألوسى ١/٢٧٤

(٧٥) الظلال ١ / ٧٤ .

(٧٦) هذا هو ما رجحه كذلك أ/ سيد قطب في الظلال ١/٧٥

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

(البقرة من ٦٧ إلى ٧١)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

(البقرة من ٦٧ إلى ٧١)

تتحدث هذه الآيات عن بنى إسرائيل وطبيعتهم الملتوية، وتكشف عن تعنتهم وتلكؤهم في تنفيذ الأوامر الإلهية، وجرأتهم وسوء أدبهم مع رسولهم، ويظهر ذلك كله على ألسنة بنى إسرائيل المتكلمين بهذا الكلام الذي تحكيه الآيات عنهم.

"إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف

الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان! لقد قال لهم نبيهم: " إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة".. وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه إنما هو أمر الله، الذي يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله -فضلاً على أن يكون رسول الله- أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس "قالوا أتتخذنا هزواً؟" (٧٧) وهذا يدل على وضوح رعاية الآيات لحال هؤلاء المتكلمين، ويظهر ذلك جليا من خلال الوسائل التعبيرية المتعددة في هذه الآيات.

فهمزة الاستفهام في قولهم (أتتخذنا هزوا) تفيد

(٧٧) الظلال ١ / ٧٧ - ٧٨.

استبعادهم واستخفافهم بأمر نبيهم[٧٨] ، واستنكارهم لما أمرهم به، وهذا يطابق حال المتكلمين بهذا من بنى إسرائيل؛ وذلك لأن "إجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله بأن يذبحوا بقرة بقولهم أتتخذنا هزوا دليل على سوء عقيدتهم في نبيهم وتكذيبهم له، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر، وجوابهم هذا كفر بموسى، وقال بعض الناس: كانوا مؤمنين مصدقين، ولكن جرى هذا على نحو ما هم عليه من غلط الطبع والخفاء والمعصية"[٧٩] .

كذلك تظهر رعاية حال المتكلم في قولهم: "ادع لنا ربك يبين لنا ما هى!"

فهذا الطلب منهم لنبيهم يكشف عن حال تعنتهم ولجاجتهم وتلكؤهم في الاستجابة لله ورسوله، فهم يطلبون أن تبين لهم الماهية رغم أن نبيهم قد أخبرهم عن ماهية المطلوب من قبل، وأنه بقرة، وهذا المطلوب هو تكليف إلهى حكيم جاء بلفظ مطلق يصدق على أى بقرة كانت، ولكنها لجاجة بنى إسرائيل.

---

(٧٨) الألوسى : ٢٨٥/١

(٧٩) البحر المحيط ٤١٥/١، وانظر الدر المصون ١٦٢/١، وروح المعاني ٢٨٥/١

"نعم، لقد كان في وسعهم - وهم في سعة من الأمر- أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون: "قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟".. والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم فهم أولا: يقولون: "ادع لنا ربك".. فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: "ما هي؟" والسؤال عن الماهية في هذا المقام- وإن كان المقصود الصفة- إنكار واستهزاء. ما هي؟ إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى.(٨٠)

ويتكرر الطلب الدال على اللجاجة والتعنت من بني إسرائيل بهذا الأسلوب نفسه الدال على عدم العبء والاهتمام وعدم الرضا بربوبية الله تعالى لهم فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، فيتكرر الطلب مراراً : "ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟، "ادع لنا

(٨٠) الظلال ١ /٨٧

ربك يبين لنا ما لونها؟ ، "ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمتهدون"

وهكذا لجاجة متناهية "ولقد كان فيما تلكئوا كفاية، ولكنهم يمضون في طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم. لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

"قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هي"..

ويعتذرون عن هذا السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل: "إن البقر تشابه علينا"..

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة. فهم يقولون:

"وإنا إن شاء الله لمهتدون"..[81]

هذا وبعد أن يخبرهم رسولهم بما طلبوه وسألوا عنه من أوصاف البقرة المخصوصة المعينة التى تسببوا بكثرة أسئلتهم في التضييق عليهم بتخصيصها وتعيينها، بعد ما أخبرهم نبيهم بتلك الأوصاف التى لا تصدق إلا على بقرة واحدة لا يحصلونها إلا

---

(٨١) الظلال : ٧٩/١

بثمن غال باهظ وهو ملء جلدها ذهبا"[٨٢] أقروا حينئذ فقط أن رسولهم قد جاءهم بالحق.

"قالوا الآن جئت بالحق "

الآن فقط، "الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقاً، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة!"[٨٣]

---

(٨٢) انظر الطبرى وابن كثير والقرطبي في تفسير الآية.

(٨٣) الظلال : ١/٧٩

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾

(البقرة: ٨٠)

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾

البقرة (٨٠)

هذا من جملة الأماني وهى الأكاذيب التى أخذوها تقليدا من شياطينهم المحرفين [٨٤] التى يمنى بها الإسرائيليون أنفسهم ليستمرئوا ما هم فيه من الباطل ويتمادوا فيه، فليفعلوا ما شاءوا وليأتوا ما شاءوا من الذنوب والجرائم ما داموا لن يعذبوا في النار إلا أربعين يوما مدة عبادتهم العجل، أو سبعة أيام عن كل ألف عام من عمر الدنيا يوما لاعتقادهم أن عمر الدنيا سبعة آلاف [٨٥].

ومن ثم يأتون بهذا النفى المؤبد القاطع لما يكون من العذاب في الآخرة (لن تمسنا النار) وهذا النفى يدل على مدى بلوغ الأماني الكاذبة في نفوسهم، ومدى اغترارهم وتبجحهم وافترائهم الكذب على الله ورسله.

وتظهر رعاية حالهم السابق أيضا في تقييدهم أيام العذاب

---

(٨٤) الألوسى ١/٣٠١

(٨٥) انظر ابن كثير ، القرطبي ، الكشاف ، الألوسى وغيرها في تفسير الآية.

بأنها (معدودة) أى محصورة قليلة، وكنى بالمعدودة عن القليلة لما أن الأعراب لعدم علمهم بالحساب وقوانينه تصوروا القليل متيسر العدد، والكثير متعسره، فقالوا: شيء معدود- أى قليل- وغـــير معدود- أى كثير"[٨٦] .

وبهذا نتبين كيف دلّ أسلوب الحصر في الآية عن طريق النفى والاستثناء على نفسية هؤلاء المتكلمين وحالهم من حيـــث السخرية والاستخفاف بما توعدوا به من العذاب.

---

(٨٦) الألوسى ٣٠٤/١

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة : ١١١)

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

(البقرة : ١١١)

وهذه الآية أيضا شبيه سياق كلام اليهود فيها بالسياق السابق، ولهذا تشابه الأسلوب فيهما، فهما في موضوع واحد وهو جملة الأماني الكاذبة الباطلةالتي يعتقدها اليهود والنصارى يمنون أنفسهم بها.

والأسلوب هنا أيضا هو أسلوب حصر بطريق النفي والاستثناء يدل على مدى القطع بالباطل، ومدى بلوغ الأماني الكاذبة بقلوبهم وعقولهم فصدهم ذلك عن طاعة الله واتباع الرسل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة : ١١٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَـةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة : ١١٨)

هذا الطلب بأسلوب التحضيض الإنشائي دال على مدى جرأتهم على الله، لاستعجالهم آياته وطلب تكليمه إياهم ومجابهتهم، ويدل عليه (لولا) الدالة على التحضيض والطلب وتعجل الأمر، وفي ذلك كله ما فيه من استكبار نفوسهم عن الاستجابة لرسل الله، والاكتفاء بكلامهم عن تكليمه سبحانه لهم، مع عدم تأهلهم لذلك أو استحقاقهم له.

قال الزمخشري: "(لولا يكلمنا الله) هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى استكبارا منهم وعتواً".[(٨٧)] .

ومن ثم جاء هذا الأسلوب الإنشائي المشتمل على التحضيض والطلب مراعيا تمام الرعاية حال المتكلمين وما هم عليه من استكبار وجرأة على الله تعالى وجحود لآياته.

---

(٨٧) الكشاف ٩١/١

وكذلك عدّ الزمخشرى قولهم: (أو تأتينا آية) "جحـــودا لأن يكون ما آتاهم من آيات الله آيات واســتهانة بهــا" فهــم يستصغرون تلك الآيات التى جاءت بهــا الرســل ويحتقرونهــا ويطلبون الآيات العظام التى تعد آيات عندهم كطلوع الشــمس من غروبها ونحو ذلك.

وهذا دال على جحود ما جاءت به الرسل من الآيات، ودلّ ما سبق على جحود دعوة الرسل أنفسهم واستهانتهم بكل من الرسل والآيات التى أرسلوا بها.

ومن ثم جاءت الآية مراعية حال المتكلمين دالــة علــى دخيلة نفوسهم وما تنطوى عليه من جحود وتكذيب واســتهانة واستكبار.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (البقرة ١٢٠)

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (البقرة ١٢٠)

يقرر الله تعالى أن اليهود والنصارى لا يرضون عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا عن عموم المخاطبين من المسلمين حتى يتبع ملتهم اتباعا تاما، إنما يدعون المسلمين إلى اتباع ما هم عليه، ويرون أنهم على الهدى الذي يحق اتباعه.

ويأمر الله تعالى نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يجابههم بهذا الرد الحاسم القاطع الميئس لأطماعهم لما يشتمل عليه من التوكيد الدال على الثبات ويقين المتكلم المجابه لهم.

فالتوكيد هنا ليس لأن المخاطب منكر أو متردد كما انتهت إليه القسمة المنطقية عند البلاغيين في مباحث البلاغة النظرية، ولكن التوكيد هنا إنما هو رعاية لحال المتكلم وما هو عليه من اليقين وثبات العقيدة مما ييئس خصمه من الطمع في اتباعه إياه في بعض ما هو عليه فضلا عن الاتباع التام لملته.

ويؤكد ذلك ما اشتملت عليه الجملة من أسلوب القصر بضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، والفصل بهذا الضمير يفيد التوكيد والقصر معا؛ فيكون المعنى : "أن هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى بالحق والذي يصح أن يسمّى هدى، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما تدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى؛ ألا ترى إلى قوله: "ولئن اتبعت أهواءهم، أى أقوالهم التى هى أهواء وبدع"[٨٨].

ومن ثم نقرر أن الآية بما اشتملت عليه من التوكيد والقصر إنما جاءت مراعية لحال المتكلم أتم الرعاية، والمتكلم هنا هو الرسول-صلى الله عليه وسلم- المأمور بقول هذا القول بقلب يملؤه اليقين والثبات، وكذلك كل مخاطب بهذه الآية من عموم المسلمين.

ويتأكد ما ذكرناه من رعاية الآية لحال المتكلم بالأصالة لا حال المخاطب وحده، أن المخاطبين هنا هم اليهود والنصارى الذين يقرر الله تعالى على سبيل النفى التأبيدى الجازم المؤكد المصدَّر بلن التأبيدية – عدم استجابتهم للرسول –صلى الله عليه

(٨٨) الكشاف ٩١/١

وسلم- وعدم رضاهم عنه، ولا عن دينه، بله اتباعه والانقياد له، فكأن الآية تيئس من حالهم ومن استجابتهم للرسول -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**﴾[٨٩] فإذا كان الله تعالى ييئس المؤمنين من استجابتهم لهم فكيف يأمرهم أن يؤكدوا لهم (إن هدى الله هو الهدى) طامعين في إقناعهم واستجابتهم، اللهم إلا أن يراد من هذا التوكيد في حقهم إغاظتهم وإيآسهم والنكاية فيهم، وفي هذا من رعاية حال المتكلم أكثر ما فيه من رعاية حال المخاطب.

وشبيه بهذا الموضع قوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ * قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**

---

(٨٩) البقرة : ٢/٧٥

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٩٠] .

في هذا السياق "يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، وبغيهم إياهم الإضلال، فأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم، ثم قال تعالى منكراً عليهم (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) أى: تعلمون صدقها وتتحققون حقها (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أى: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه"[٩١].

ثم ذكر بعد ذلك صورة من صور كيدهم ومكرهم لصد المسلمين عن دينهم فقال: "وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) الآية هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة

---

(٩٠) آل عمران ٣/٧٢ –٧٤.

(٩١) ابن كثير ١/٤٠٠.

وعيب في دين المسلمين؛ ولهذا قالوا (لعلهم يرجعون)[٩٢].

وقوله تعالى: (ولا تؤمنوا) متعلق بقوله أن يؤتى أحد وما بينهما اعتراض، أي: ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتاً ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام (أو يحاجوكم عند ربكم) عطف على أن يؤتى والضمير في يحاجوكم لأحد؛ لأنه في معنى الجمع ولا تؤمنوا لغير أتباعكم إن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة[٩٣].

والذي يعنينا في هذا المقام هو الالتفات إلى ما في هذا الاعتراض (قل إن الهدى هدى الله) من رعاية حال المتكلم به، وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم- المأمور بإظهار هذا الاعتراض بمنطق القوة واليقين وثبات العقيدة الميئس للخصم والقاطع لأوهام اليهود المعتقدين أن بمكيدتهم للمؤمنين -بإظهار

---

(٩٢) ابن كثير ١/٤٠٠.

(٩٣) الكشاف : ١/١٩٥

الإيمان المدعى ثم إظهار الكفر، وكتمان ما عندهم من صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- ووجوب الإيمان به واتباعه، وكتمان ما عندهم مما يصدق شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- يستطيعون ردهم عن دينهم وصدهم عنه، ففى هذا الاعتراض نجد معنى الإغاظة والتحدى والإحباط لهؤلاء اليهود.

وكما سبق أن بينا أن التوكيد لليهود غير نافع لهم لإصرارهم على الكفر والعناد واستمرارهم على الكيد للمسلمين، وصدهم عن دينهم كما تبينه الآيات؛ فمن ثم نقرر أن الآيات لم تأت لرعاية حال المخاطبين بالأصالة، فالتوكيد هنا ليس لإزالة إنكارهم أو ترددهم، كيف وقد بلغوا الغاية في الكيد للمسلمين وصدهم عن سبيل الله؟!

وإنما جاء التوكيد هنا رعاية لحال المتكلم وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكل متكلم مقامه -صلى الله عليه وسلم- معترضا على اعتقاداتهم الباطلة، وتصوراتهم المنحرفة أنهم يستطيعون كتم الحق، وإضلال الناس، وصرفهم عن الهدى فيأتي هذا الاعتراض بالرد الحاسم الدال على ثبات المؤمن في اعتقاده وعدم اهتزازه إزاء هذه الصور الداحضة من الكيد والمكر

الرخيص مقرراً أن الله تعالى وحده هو مالك الهداية، وأن الهدى الحقيقي لا يكون إلا من الله تعالى.

وهذا ما يدل عليه التعبير باللام مع التوكيد بـإن بهذا الأسلوب المفيد للحصر.

وهذا كله فيه من رعاية حال المتكلم وما يعبر به عن حاله من ثبات الاعتقاد وصحته وقوة الإيمان واليقين ما يدل على رعاية الآية لحال المتكلم أكثر من حال المخاطب، وحرصه على إغاظته وإحباطه وهو حال للمتكلم كذلك.

بقي أن نقف وقفة نستطرد فيها البحث عن سر التقديم والتأخير بين الآيتين:

(قل إن هدى الله هو الهدى) في آية البقرة

(قل إن الهدى هدى الله) في آية آل عمران

والذي يتضح لنا من خلال النظر في سياق الآيتين، وما عليه العرب في بلاغتهم من تقديم ما هو لديهم أهم، وما هم به أعنى- أن لفظ الهدى قد وظف في كل آية بدلالة تختلف عن الآية الأخرى، فالهدى له معنيان:

الأول: الدلالة والبيان والمنهج المتبع.

الثاني: خلق الهداية في قلب العبد وتوفيقـــه إلى الحـــق.

والأول عام يكون من الله تعالى، ويكون من غيره، أما الثاني فهو خاص به سبحانه.

ومن ثم لما كان المراد فيالآية الأولى نفى اعتقاد اليهـــود أنهم على شيء من الهدى الذي لا يرضون إلا باتباعهم فيه فهـــم يعتقدون أنهم على هدى، فمن ثم تتعدد أنواع الهدى الدلاليـــة البيانية:

الأول: هدى الله الذي أنـــزله على رسوله -صلـــى الله عليه وسلم-.

الثاني : هدى اليهود فيما هم عليه (باعتقادهم الفاسد).

ولذا جاءت الآية بهذا الرد الحاسم الذي يقدم الهـــدى المنسوب إلى الله تعالى (هدى الله) أى منهجه وشريعته وهو مـــا جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- فيقدمه على مطلق الهـــدى الذي يدعيه اليهود كله أو بعضه فلما كان الأمر المتنازع فيه هنا هو تحديد جهة الهداية الدلالية، قدمت الآية الجهة الإلهية للهدايـــة لتحسم بها ذلك النـــزاع.

أما في الآية الثانية فالمتنازع فيه ليست الهداية الدلالية وإنما

الهداية التى تخلق وتكون في القلوب، فيرى اليهود أنهم يملكــــون أسباب منع تلك الهداية بكتم الحق، ومخادعة المؤمنين، والكيد لهم، فمن ثم يأتي هذا الاعتراض الصـــارم (قـــل إن الهـــدى هـــدى الله)مقدما لفظ (الهدى) المعرف بأل، الدالة على حقيقة الهـــدى، فالهدى الحقيقي الذي يكون في القلوب لا يكـــون إلا مـــن الله تعالى، ولا يملك أحد إيجاده أو منعه **﴿ما يفتح الله للنـــاس مـــن رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعـــده، وهـــو العزيز الحكيم﴾**(٩٤) وهذا ما يؤكده الزمخشرى في بيانه لمعنى هذا الاعتراض فيقول: "فإن قلت: فما معنى الاعتراض (أى قوله: قل إن الهدى هدى الله) قلت: معناه أن الهدى هدى الله، من شاء أن يلطف به حتى يسلم أو يزيد ثباته على الإسلام كان ذلـــك، و لم ينفع كيدكم وحيلكم وزيفكـــم تصديقكـــم عنـــد المســـلمين والمشركين، وكذلك قوله تعالى: "قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) يريد الهداية والتوفيق"(٩٥) .

وفي قرن الزمخشرى الهداية بالتوفيق في هذا النص ما يشعر

---

(٩٤) فاطر: ٢

(٩٥) الكشاف ١/١٩٥-١٩٦

بما ذهبنا إليه في توجيه الآية كما أن مجمل كلامه واضح في أنه إنما يريد الهداية التى يخلقها الله تعالى في قلوب من شاء من عباده.

وهذا الذي قررنا رعاية الآية له جاء مناسبا أتم المناسبة لحال المؤمن المنشرح صدره بالإيمان المجابه اليهود بما يعتقده من الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(البقرة: ٢/١٢٥-١٢٨)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة : ٢/١٢٥-١٢٨)

هذه الآيات فيها من رعاية حال المتكلم ما يرسم صورة واضحة لشخصية هذا النبي الكريم، وما انطوت عليه نفسه من الإخلاص والإنابة والإشفاق والخوف من الجليل، والتذلل والتواضع لعظمته، والرغبة فيما عنده، ومحبة المؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين وبرائه منهم.

فاجتمع في قلبه من الخوف والطمع، والرغبة والرهبة والولاء والبراء ما يشهد له بصدق التوحيد والإيمان، وصدق العبودية لله تعالى، وقد تجلى ذلك في تصوير الآيات لتلك الحال

من خلال مناجاة إبراهيم عليه السلام لربه.

وهذا واضح تمام الوضوح في دعاء إبراهيم عليه السلام ربه، ومناداته بصفة الربوبية التى تشعر بخضوع العبد وإقراره بمالكية الله تعالى له، وانفراده بتدبير أمره والقيام عليه وهيمنته عليه وعلى كل شيء.

فالرب هو المالك للشيء، وهو مدبر الأمر ومصلحه والمتصرف فيه. (٩٦) .

ويأتي هذا الإقرار بالربوبية مناسباً أتم المناسبة لما يتبعه من الطلب في قوله (اجعل هذا بلداً آمنا) و(ارزق أهله من الثمرات) فالذي بيده إصلاح هذا البلد، وجعله على خير حال، وتأمين أهله، ورزقهم من الثمرات.. هو الرب المالك للأمر ومصلحه ومدبره وفي قصر إبراهيم الرزق في دعائه على من آمن بالله واليوم الآخر دلالة واضحة على ما استقر وثبت في قلب إبراهيم عليه السلام من محبة الخير للمؤمنين وولائه لهم، وكراهية الكافرين والتبرؤ منهم، كيف وقد تبرأ إبراهيم من أبيه لما تبين له أنه عدو لله! ﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها**

---

(٩٦) راجع اللسان مادة (ربب).

**إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه؛ إن إبراهيم لأواه حليم﴾**[٩٧]

وهذا موقف آخر تصوره الآيات ليضيف بعداً جديداً من حقائق الإيمان، وصفات المتقين في شخص هذا النبي الكريم. فهو يبذل أقصى جهده، وقد أدركه العناء والتعب على شيخوخته وكبر سنه، وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل يناوله الحجارة في بنائه للبيت، وهجّيراه ودعاؤه الذي لا دعاء له غيره "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" إنها قمة العبودية، وقمة الإشفاق من الله تعالى والتذلل للعظمة، والتواضع بين يديه إنها الشفافية المرهفة في هضم العبد لذاته واستصغار عمله في سبيل الله تعالى.

فإبراهيم لا هم له سوى أن يتقبل الله تعالى عمله، وأن يخلصه من الآفات والمحبطات من العجب والفخر والرياء حتى يحوز قبول سيده ومولاه وحينما يعن لإبراهيم عليه السلام أن يردف دعاءه بدعاء آخر، فهو لا يدعو لنفسه ولا لولده بشيء من الدنيا، ولا يطلب على عمله شيئا من الأجر في العاجلة، وإنما طلبه الوحيد:

(٩٧) التوبة: ٩/١١٤.

**"ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم".**

إنه الولاء التام لهذا الدين، والولاء التام للأمة المسلمة، والذرية المسلمة إلى يوم الدين، إنها إرادة الخير الحق للعالمين.

ولقد أثمرت تلك الدعوة رحمة للعالمين فكانت بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- إجابة من الله تعالى لدعوة إبراهيم عليه السلام.

وحينما نضم إلى هذه الآية ما ورد في القرآن من بيان استجابة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام في دعوته- يتبين لنا صورة أخرى من صور مراعاة القرآن لحال المتكلم بهذا الدعاء وهو ذلك البشر الكريم إبراهيم الخليل عليه السلام.

فإبراهيم عليه السلام مهما بلغ من المكانة عند الله تعالى فهو في نهاية الأمر بشر يصيب ويخطئ فيما لم ينزل عليه فيه وحي.

والآيات القرآنية تكشف عن هذه البشـــرية في حـــال المتكلم إبراهيم عليه السلام، وتتميز هذه البشرية حينمـــا تقـــارن بكلام الحق سبحانه وتعالى في الصدد نفسه.

فإبراهيم يسأل الله تعالى أن يقصر الأمن والرزق على من آمن بالله واليوم الآخر.

وهذا وإن دلّ على صدق إيمانه وولائه وبرائه، فإنه يدل في الوقت نفسه على بشريته التى تتمايز عن طبيعة الإله الكريـــم الجواد الفياض الذي لا حد لعطائه وجوده.

فالله تعالى يستجيب لإبراهيم دعوته وزيـــادة لم يســـألها إبراهيم عليه السلام.

تتضح في إجابة الحق تبارك وتعالى: "قال: ومن كفـــر" قال ابن كثير (رحمه الله): قال ابن عباس (رضـــى الله عنهمـــا): "كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون النـــاس، فأنـــزل الله: ومن كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنـــين، أأخلـــق خلقـــاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس: "كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، ومـــا

كان عطاء ربك محظورا"[٩٨] .

وأمر آخر في دعاء إبراهيم يكشف عن هذه البشرية التى تصيب وتخطئ ما لم يساندها وحى السماء، وذلك في دعائه: **﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾**.

إذا ما تأملنا إجابة الله تعالى لهذه الدعوة وجدنا أن الله تعالى قد أنزل إجابته لهذه الدعوة في ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لها، وهذه المواضع هى:

١-قوله تعالى في سورة البقرة: **﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾**[٩٩] .

٢-قوله تعالى في سورة آل عمران: **﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى**

---

(٩٨) ابن كثير ١٨٧/١

(٩٩) البقرة : ٢/١٥٠-١٥٢.

**ضلال مبين﴾**[100] .

٣-قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿**هو الــذي بعــث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتــه ويزكيهــم ويعلمهــم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾[101] .

فهذه ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى لا رابع لها، وقــد جاءت كلها على نسق رباني واحد، وهذا النسق هو ترتيب عمل الرسول كالآتي:

**١) تلاوة الآيات**

**٢) التزكيــة**

**٣) التعليــم**

وتكرار الآيات الثلاثة بهذا النسق والترتيب المتحد يــدل على أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد فاته بعلمه البشرى المحدود الترتيب الصحيح للمنهج الدعوى في عمل الرسول الــذي دعــا ببعثته.

وتأتي هذه الآية التى تشتمل على دعاء إبراهيم عليــه

---

(١٠٠) آل عمران: ٣/١٦٤.

(١٠١) الجمعة : ٦٢/٢.

السلام مخالفة في ترتيبها النسق القرآني في الآيات الثلاثة الأخرى التى تحدثت في هذا الصدد بذاته؛ وذلك مراعاة لحال المتكلـــــم، معبرة عن بشريته وعلمه المحدود إزاء علم الله تعالى وحكمته التى لا حدّ لها ولا نهاية.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة : ١٣٥-١٤٠)

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة : ١٣٥-١٤٠)

في هذه الآيات بيان للمحاجة بين المشركين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمؤمنين الصادقين في إيمانهم، وتكشف الآيات عن حال كل من الفريقين، وتأتي مقولة كل

واحد من الفريقين مطابقة تمام المطابقة لحال المتكلم ودالة عليه.

فهؤلاء هم اليهود والنصارى يجتمعون معا على مقولة واحدة "كونوا هود أو نصارى تهتدوا" ومقولتهم تأتي بصيغة الأمر العارى من الحجج والبراهين فهو مجرد دعوة وطلب من أناس مراوغين محتالين يزعمون أن سبيلهم سبيل المهتدين بلا حجة ولا دليل.

ويأتي الرد الدامغ ليبين ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من الحق، وذلك في قوله تعالى "قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون" وقد جاءت الآية مراعية لحال هؤلاء المؤمنين المتكلمين بذلك، وذلك عن طريق الأسلوب الإنشائي المشتمل على الاستفهام الاستنكارى الذي يدل على استنكار المؤمنين لمحاجة هؤلاء المشركين في الله إلها ومعبوداً وحده، مع أن ربوبيته نافذة في الجميع مما يقتضى إخلاص الألوهية له وحده لا شريك له(١٠٢) .

"وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم، وهو

(١٠٢) انظر تفسير ابن كثير في الآية.

غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج"(١٠٣) ويتدرج موقف المؤمنين من إنكار المحاجة إلى مواجهتها بالحجة الدامغة "أمْ تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون" والأية بهذا الأسلوب تشعر بسخرية المؤمنين من هؤلاء الكاذبين على الله ورسله، ويظهر ذلك من تصدير الاستفهام بـ(أم) وكذلك الاستفهام بالهمزة في "قل أأنتم أعلم أم الله" "وأم إما متصلة معادلة للهمزة في (أتحاجوننا) داخلة في حيز الأمر والمراد بالاستفهام إنكارهما معاً بمعنى كل من الأمرين منكر ينبغي أن لا يكون إقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ما أنتم عليه، والحال ما ذكر والتشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء عليهم السلام، وفائدة هذا الأسلوب مع أن العلم حاصل بثبوت الأمرين الإشارة إلى أن أحدهما كاف في الذم فكيف إذا اجتمعا، وإما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الاضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على

(١٠٣) الظلال ١/ ١١٨-١١٩.

الافتراء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام". [١٠٤]

وفي إيلاء الضمير أنتم حرف الاستفهام يشعر باحتقار المؤمنين لهؤلاء المدعين لتلك الأباطيل والسخرية والاستهانة بهم، وتقليل شأنهم، ومن ثم يتقرر ظلمهم صراحة مع توعدهم بما ينتظرهم من عقاب الله تعالى عن طريق الكناية "وما الله بغافل عما تعملون"

وهو سؤال لا جواب عليه وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه[١٠٥].

(١٠٤) روح المعاني للألوسي ١/٣٩٩ - ٤٠٠ .

(١٠٥) السابق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

(البقرة : ١٧٠)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة : ١٧٠)

تظهر هنا رعاية حال المتكلم واضحة في جواب هؤلاء المشركين حينما يدعون لاتباع ما أنزل الله، فيحكى القرآن جوابهم مصدرا بـ (بل) التى تفيد الإضراب والإعراض الجازم عما يدعون إليه، وإيثار ما عليه الآباء من الأعراف والعادات والتقاليد المخالفة لما أنزل الله تعالى.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّـــةَ وَلَمَّـــا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُــــمْ مَسَّـــتْهُمُ
الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْـــرَ
اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة (٢١٤)

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة (٢١٤)

في هذه الآية الكريمة بيان لسنة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين الموحدين من الرسل وأتباعهم، حيث اقتضت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده بالبأساء والضراء والخوف الشديد الذي يزلزل القلوب حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ويأتي هذا الأسلوب الاستفهامي الإنشائي معبرا تمام التعبير عن حال المتكلمين به، وهم هؤلاء المؤمنون الموحدون الذين "بلغ بهم الضجر، و لم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه: طلب الصبر وتمنيه واستطالة زمان الشدة وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظم لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدةَ التى لا مطمح وراءها[١٠٦] .

---

(١٠٦) الكشاف ١/ ١٣٠

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

(البقرة : ١٦٥-١٦٧)

﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ﴾(البقرة : ١٦٥-١٦٧)

في هذه الآيات الكريمة حكاية تبرؤ كل من الرؤساء المتبوعين وتابعيهم بعضهم من بعض عند معاينة العذاب يوم القيامة، وتيقنهم أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب، حينئذ يتبرأ الرؤساء المتبوعون من أتباعهم في محاولة منهم لتبرئة أنفسهم من اتباع هؤلاء الأتباع لهم في الباطل طمعا في تخفيف عقوبتهم.

وحينئذ حينما يعاين هؤلاء الأتباع تبرؤ رؤسائهم منهم يعضون أصابع الندم، ويبدون رغبتهم المؤكدة، وتمنيهم المؤكد أن يعودوا إلى الدنيا وتكون لهم كرّة إليها مع هؤلاء الرؤساء ليتبرؤا منهم ومن طاعتهم كما تبرءوا منهم في الآخرة.

ويأتي الكلام هنا مراعيا حال المتكلمين وهم هؤلاء

الأتباع بأسلوب التمني الإنشائي الذى تفيـــده (لـــو) في هـــذا السياق(١٠٧) إبرازاً للحالة النفسية لهؤلاء المتكلمين، وما هم عليه من شدة الغيظ والحنق على هؤلاء الرؤساء المضلين لهم.

(١٠٧) قال الزمخشرى في هذه الآية: (لو) في معنى التمني، ولذلك أُجيب بالفاء الذي يجاب به التمني، كأنه قيل: ليت لنا كرّة فنتبرأ منهم" الكشاف ١/١٠٦

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

(البقرة ٢٤٦-٢٥٠)

هذه الآيات تعرض (تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى.. بعدما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة؛ واستيقظت في قلوبهم العقيدة؛ واشتاقوا القتال في سبيل الله. فقالوا : "لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله"(١٠٨) وتكشف الآيات عن حال هؤلاء الملأ من خلال مقولاتهم المسوقة على ألسنتهم في هذا السياق: (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله)، (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) إن الأمر في الموضع الأول يدل على الحرص على طلب بعث قائد يقودهم للقتال، والاستفهام التعجبي في الموضع الثاني يدل على أن الأمر جد لا هزل فيه، لا يتطرق إليه التردد بحال.

ولكن الأمر يختلف ويتحول إلى اللجاجة والتعنت المعهود من بنى إسرائيل والذي كشفت عنه النماذج السابقة، وذلك حينما يطلب من بنى إسرائيل التنفيذ الفعلى لما طلبوه بألسنتهم:

---

(١٠٨) الظلال ١ / ٢٦٢

(قالوا أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه)

بهذا الأسلوب الإنشائي الاستفهامي التعجبي يستنكر بنو إسرائيل صفات الملك الذي ابتعثه الله تعالى لهم مجيبا لطلبهم، في أسلوب يدل على التعنت واللجاجة وسوء الأدب مع الله ورسله.

"وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة.. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا "في سبيل الله". فها هم أولاء ينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستنكرون أن يكون طالوت- الذي بعثه الله لهم -ملكاً عليهم. لماذا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عن أحقية الوراثة!.. وكل هذا غبش في التصور، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة..

وتتكشف تماما طبيعة هؤلاء الملأ لتكشف لنا عن نفوس يملأها الجبن والخور، وذلك الجبن والخور الذي مهدوا له من قبل بذلك التلكؤ والتعنت فهو نتيجة بدهية لتلك المقدمات السابقة

عليه؛ تكشف الآيات عن هذه الطبيعة في قولهم ( لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده )

ويأتي التعبير بلا النافية للجنس للدلالة على انتفاء أصل الطاقة لديهم وعدم وجود أى استعداد لديهم لبذل أدنى جهد أو أدنى محاولة للاستجابة لأمر الله وأمر رسوله.

وفي المقابل لحال هؤلاء تكشف الآيات عن حال الفئة المؤمنة:

"كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين"

إنها تكشف عن حال نفوسهم التى يملؤها الرجاء والثقة بالله تعالى وترجو نصره وعونه، وتستعين على ذلك بالصبر لأوامره.

ويتضح هذا الحال تماما من دعائهم حينما برزوا لجالوت وجنوده فقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة : ٢٥٨)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة : ٢٥٨)

في هذه الآية تظهر رعاية حال المتكلم في هذه المقابلة بين موقف كل من إبراهيم عليه السلام وذلك النمروذ، وتأتي صياغة الآية دالة على حال كل من المتناظرين، يظهر ذلك في قول إبراهيم عليه السلام (ربي الذي يحي ويميت)، وتقديم كلمة (ربي) في الآية يشعر بالاختصاص فهو وحده الذي يقدر على الإحياء والإماتة وينفرد بهما ولكن النمروذ في غطرسة المتكبر وعنجهيته يجيب على هذا بادعاء! إكان ذلك منه بقوله: (أنا أحيي وأميت)

وتصدير الكلام بهذا اللفظ (أنا) يشعر بمدى التكبر والاغترار الذي عليه هذا النمروذ.

ولكن يبقى التفوق لكلام إبراهيم عليه السلام، وذلك

لأن التقديم أشعر بالاختصاص، والصلة (الذي) أشعرت بأنه سبحانه وتعالى معروف بذلك مشهور به، ويبقى كلام النمروذ ادعاء فارغا ينقصه الدليل والبرهان، لقد (عرف إبراهيم -عليه السلام- ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره.. قال: "ربي الذي يحي ويميت" فهو من ثم الذي يحكم ويشرع.[١٠٩]

---

(١٠٩) الظلال ١ / ٢٩٨.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٥٩)

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة : ٢٥٩)

إن الآية هنا تصور حال هذا النبي المار على هذه القرية التى أبادها الله تعالى، وأهلك أهلها، وهى خاوية على عروشها، ويأتي التعبير القرآني على لسان هذا المتكلم مراعيا حاله ومطابقا لها تمام المطابقة (أنى يحيى هذه الله بعد موتها).

وهذا الأسلوب الإنشائي الاستفهامي التعجبي (اعتراف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء، واستعظام لقدرة المحيى"[(١١٠)] .

---

(١١٠) الكشاف ١/١٥٧

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

(البقرة : ٢٧٥)

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة : ٢٧٥)

تكشف هذه الآية عن طبيعة اليهود الملتوية، فهي بيان لحال المتكلم وما تنطوي عليه نفسه من خبث ومكر والتواء فاليهود دأبهم قلب الحقائق، فيجعلون الحلال حراما، والحرام حلالاً.

وها هم يردون على تحريم الله تعالىللربا، مدعين أن الربا مثل البيع ولكنهم يبالغون في ذلك فيجعلون الربا أصلا لا تلحقه الشبهات، ثم يقيسون عليه البيع الذي أحله الله ليتوصلوا بذلك إلى تماثلهما في الحكم بزعمهم عن طريق القياس، ولهذا قال الزمخشرى، "فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه وكانت شبهتهم أنهم قالوا لو اشترى الرجل ما لا يساوى إلا

درهما بدرهمين جاز فكذلك إذا باع درهما بدرهمين (قلـــت) جيء به على طريق المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا في الحل حتى شبهوا به البيع.(١١١)

---

(١١١) الكشاف ١ / ١٦٥ .

## الخاتمة ونتائج البحث

من خلال النماذج التى عرض لها البحث، والتى تم تتبعها في سورة البقرة نستطيع أن نقرر الآتي:

١-أن رعاية حال المتكلم وإن لم يلتفت إليها كثير من البلاغيين النظريين فقد التفت إليها كثير من المفسرين في تطبيقاتهم البلاغية حول القرآن الكريم، وقد عرض البحث من أقوال المفسرين ما يشهد لذلك ضمن ما أورده من النماذج.

٢-أن القرآن الكريم قد عنى برعاية حال المتكلم في جميع نصوصه ويظهر ذلك واضحا جليا بحيث تظهر رعايته في المقام الأول في النصوص التى يحكى القرآن فيها أقوال طوائف الناس، أو يتكلم على ألسنتهم، وذلك كما يظهر واضحا من أغلب الأمثلة التى أوردناها مما تعد من قبيل مقول القول.

٣-أن رعاية حال المتكلم لا تكاد تنفك عن حال المخاطب، حتى في أكثر النصوص التى يظن أنها قد أفردت لرعاية حال المخاطب شاكا أو منكرا أو مترددا أو غير ذلك، فإن الخصائص التعبيرية لهذه التراكيب تحمل في طياتها كذلك ما يعبر

عن حال المتكلم ويكشف عنه[١١٢] .

ونستطيع أن نقرر على الجملة:

أن توكيد المتكلم على سبيل المثال الكلام للمخاطب إنما يعبر في الوقت نفسه عن اهتمام المتكلم بهذا الأمر الذي يؤكده وحرصه عليه، وهذا حال للمتكلم قد أهمل بيانه والكشف عنه عند كثير من البلاغيين، وينبغي الاهتمام ببيانه بالقدر نفسه الذي يهتم فيه ببيان حال المخاطب إن لم يكن أكثر؛ وذلك لأن حال المتكلم هو الدافع المباشر للكلام.

وذلك لأننا إذا قلنا إن موقف المخاطب يمثل مثيرا للمتكلم يدفعه إلى تمييز خطابه له بهذه الخصائص التعبيرية؛ فإننا نقول إننا لا ننكر تأثر المتكلم بموقف المخاطب، ولكننا نقول إن موقف المخاطب يولد لدى المتكلم حالة نفسية معينة هى التى يتم الانفعال على أساسها، ومن ثم توجيه الكلام إلى المخاطب ومحاولة التأثير فيه بالخصائص التعبيرية المختلفة.

---

(١١٢) انظر تحليل الآيات رقم ١١ ، ١٣ ، ١٤ من سورة البقرة على سبيل المثال.

إنكار المتكلم على المخاطب يعبر في الوقت نفسه كذلك عن موقف المتكلم الرافض لما عليه المخاطب، كما يحمل محاولة رد المخاطب عما هو عليه وإنكاره عليه سواء بسواء، ومعنى ذلك أن الخصائص التعبيرية المختلفة التى سماها البلاغيون بخصائص التراكيب تعبر في الوقت نفسه عن كل من حال المخاطب وحال المتكلم سواء بسواء.

يقاس على ذلك جميع الأحوال مثل: المدح والذم والتوبيخ والتعجب .. إلخ، فالمدح على سبيل المثال، وإن كان موجها للمخاطب فإنه يحمل في الوقت نفسه قناعة المتكلم بصفات الممدوح ورضائه عنها، أو عدم قناعته وتملقه فيها، أو غير ذلك مما يكشف عنه السياق والمقام.

وكذلك الذم إنما يحمل على العكس من ذلك كراهية المتكلم لتلك الصفات وبغضه إياها.. وهكذا.

٤-حاول البحث التركيز على رعاية حال المتكلم

باعتباره المعيار الأول لصدق العمل الأدبي؛ بل لعل هذا هو المقياس الوحيد لصدق الأديب، وذلك أن الكلام كلما كان معبرا عن حال المتكلم، وموقفه إزاء المخاطب، وإنفعاله تجاهه، واهتمامه بالقضية المتحدث عنها كلما كان دالا على صدق عاطفته ومشاعره مما يضمن للعمل الأدبي النأى عن موارد التكلف والغلو الممقوت في النص الأدبي.

٥-حاول هذا البحث أن يسلط الضوء على حال المتكلم وضرورة مراعاته والكشف عنه بغية المساهمة في تقدم الدراسات البلاغية والنقدية وتحررها من التقيد بربقة النظريات البلاغية القاصرة عن الإلمام بجميع معطيات النص الأدبي في محاولة للالتحام بالنصوص والتطبيق بدرجة أكبر تضمن للبحث البلاغى نتائج أكثر صدقا وأقرب للصواب من تلك النظريات التى تحوم في آفاق العقول، وتستلهم حدود المنطق، دون أن تستجلى معالم النص وتهتدى بهداه.

وختاما يرجو الباحث أن يكون قد وفق فيما قصد

إليه، وأن يساهم هذا البحث في الاهتمام بهذا الجانب البلاغي بمزيد من البحوث التطبيقية في مجالات مختلفة تشمل القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، والشعر العربي في مختلف العصور، ولعل الباحث قد تهيأ له الفرصة لاستكمال ذلك في بحوث لاحقة، وإلا فحسبه أنه قد فتح الطريق لغيره من الباحثين لاستكمال المسيرة في هذا الموضع الثر، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

# الفهارس

# فهرس الآيات القرآنية


| الآية | رقم الصفحة |
| --- | --- |
| ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الفاتحة:١ | ٢٨ |
| ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ الفاتحة: ٤ | ٢٨ |
| ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الفاتحة:٥ | ٣٠ |
| ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ الفاتحة ٦ | ٣٠ |
| ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ البقرة: ٢ | ٢٠ |
| ﴿إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ البقرة: ١٤ | ٣٥ |
| ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا....﴾ البقرة: ١٤ | ٣٦ |
| ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا..﴾ البقرة: ٢٣،٢٤ | ٦٠ |
| ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها...﴾ البقرة: ٢٦ | ٦٨ |
| ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ....﴾ البقرة: ٥٦ | ٧٦ |
| ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ....﴾ البقرة: ٦٧-٧١ | ٨٤ |
| ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ...﴾ البقرة: ٧٥ | ١٠٢ |
| ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلى أياماً معدوة﴾ البقرة: ٨٠ | ٩١ |
| ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى...﴾ | |

البقرة:١١١ ٩٤
﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ....﴾ البقرة:١١٨ ٩٦
﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم...﴾
البقرة: ١٢٠ ٩٩
﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمناً...﴾
البقرة ١٢٥-١٢٨ ١١٠
﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما
كان من المشركين...﴾ البقرة:١٣٥-١٤٠ ١١٩
﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً يتلو عليكم آياتنا...﴾
البقرة:١٥٠ ١١٦
﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً....﴾
البقرة:١٦٥-١٦٧ ١٢٨
﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ....﴾ البقرة:١٧٠ ١٢٤
﴿ولقد علموا لمن اشتراه...﴾ البقرة: ١٠٢ ٣٨
﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه...﴾ البقرة:٢٥٨ ١٣٥
﴿أو كالذي مر على قرية....﴾ البقرة: ٢٥٩ ١٣٨
﴿رب إني وضعتها أنثى﴾ آل عمران: ٣٦ ٤١
﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب...﴾ آل عمران:٧٢-٧٤ ١٠٢
﴿لمن من الله على المؤمنين...﴾ آل عمران:١٦٤ ١١٦

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته...﴾آل عمران:١٩٢ ٣٨
﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه...﴾ التوبة: ١١٤ ١١٣
﴿لئن شكرتم لأزيدنكم..﴾ إبراهيم:٧ ٢٨
﴿إنا منكم وجلون﴾ الحجر:٥٢ ٣٨
﴿إنكم قوم منكرون﴾ الحجر:٦٢ ٣٨
﴿سبحآن الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ الإسراء:١ ٣٠
﴿ويسألونك عن الروح...﴾ الإسراء: ٨٥ ٦٩
﴿رب إني وهن العظم مني ....﴾ مريم: ٤ ٣٩
﴿أني يكون لي غلام﴾ مريم: ٢٠ ٢٦
﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون....﴾ المؤمنون: ١٥-١٦ ١٩، ٣٤
﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا...﴾ المؤمنون: ٢٧ ١٩
﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ النمل: ١٤ ٦٢
﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك له ..﴾ فاطر:٢ ١٠٨
﴿يس* والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين﴾ يس: ١-٣ ٣٨
﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ...﴾ يس:١٣، ١٦ ١٨
﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم...﴾ الجمعة:٢ ١١٧

## المراجع والمصادر


١- لسان العرب - ابن منظور

٢- البحر المحيط

٣- تفسير الطبري

٤- تفسير القرطبي

٥-تفسير ابن كثير

٦- تفسير الزمخشري

٧- تفسير الغيب

٨- روح المعاني - الألوسي

٩- حاشية الصاوي على الجلالين

١٠-الدر المصون

١١- التحرير والتنوير - ابن عاشور

١٢- في ظلال القرآن، سيد قطب

١٣- فتوح الغيب

١٤- شرح مشكاة المصابيح تحقيق د/عبدالحميد هنداوي

١٥- مفتاح العلوم تحقيق د/عبدالحميد هنداوي

١٦- الإيضاح للقزويني تحقيق د/ عبدالحميد هنداوي

١٧-دلائل الإعجاز تحقيق د/عبدالحميد هنداوي

١٨- نهاية الإيجاز - الرازي

١٩- لطائف التبيان تحقيق د/عبدالحميد هنداوي

٢٠- دراسات في علمي المعاني والبديع د/حسن طبل

٢١- فن القول الشيخ/ أمين الخولي

## كتب المؤلف

### في علوم البلاغة والنقد والأدب المقارن

| نوعه | اسم الكتاب |
|---|---|
| تحقيق | أسرار البلاغة للجرجاني |
| تأليف | أضواء على مسيرة البلاغة العربية |
| تأليف | الأدب المقارن: المفهوم والقيمة |
| تحقيق | الأطول على التلخيص |
| تأليف | الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم |
| تحت الطبع | الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم |
| تحقيق | الإيضاح في علوم البلاغة |
| تحقيق ودراسة | بلاغات النساء لابن طيفور |
| تأليف | البلاغة بين النظرية والتطبيق |
| تحقيق | التبيان في المعاني والبيان للطيبي |
| تحت الطبع | التكرار الصيغي في الشعر العربي المعاصر |
| بحث بصحيفة دار العلوم | التكرار في الدراسات الأسلوبية الحديثة |
| تحقيق ودراسة | التلخيص في علوم البلاغة |

| | |
|---|---|
| للقزويني | |
| التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة دراسات نظرية تطبيقية | تأليف |
| الخصائص لابن جني | تحقيق |
| دلائل الإعجاز للجرجاني | تحقيق |
| الدلالة الفنية للأصوات | بحث |
| رسالة الأدب المقارن | بحث بصحيفة دار العلوم |
| سلسلة دراسات أسلوبية في القرآن الكريم | تحت الطبع |
| شرح الدسوقي على التلخيص | تحقيق، دراسة |
| شرح السعد على تلخيص المفتاح | تحقيق ودراسة |
| شروح التبيان في المعاني والبيان للطيبي وتلميذه علي بن عيسى | تحقيق ودراسة |
| الطراز للعلوي | تحقيق |
| العمدة لابن رشيق | تحقيق |
| عروس الأفراح شرح وتلخيص المفتاح للسبكي في علوم البلاغة | تحقيق ودراسة |
| علم البديع وفن الفصاحة للطيبي | تحقيق |

| | |
|---|---|
| عنوان المرقصات المطربات لابن سعيد الأندلسي | تحقيق |
| معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي | تحقيق ودراسة |
| الكاشف عن حقائق السنن وهو شرح بلاغي لمشكاة المصابيح للطيبي ١٣ مجلدا | تحقيق |
| الكامل في اللغة والأدب للمبرد | تحقيق |
| كيف تقرأ العمل الأدبي؟ | تحت الطبع |
| لطائف التبيان في المعاني والبيان للطيبي | تحقيق ودراسة |
| المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده | تحقيق ودراسة |
| المرقصات المطربات لابن سعيد الأندلسي | تحقيق |
| مجموعة شروح التلخيص في علوم البلاغة | تحقيق ودراسة |
| مرآة المروآت للثعالبي | تحقيق |
| المطول على التلخيص | تحقيق |

| | |
|---|---|
| معالم على طريق النقد الأدبي | تأليف |
| من بلاغة الكتاب والسنة وهو الإمام الطيبي وتجديداته البلاغية | تأليف |
| مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي | تحقيق ودراسة |
| وجوه البلاغة في متشابه القرآن | تحت الطبع |

المقدمة ........................................ ٤
الخبر وأنواعه.......................................... ١٦
أنواع الحال...... ...... ...... ...... ...... ...... ٢٤
١- أحوال المخاطب........................ ٢٢
٢- الغرض ................................ ٢٣
٣- الظروف والاعتبارات الخارجية المصاحبة
للكلام أو الداعية إليه........................ ٢٤
٤- أحوال المتكلم ........................ ٢٥
النماذج المختارة لرعاية حال المتكلم في سورة البقرة: ٤٥
النموذج الأول ...... آية ١١........... ...... ... ٤٦
النموذج الثاني ...... آية ١٣ ...... ...... ...... ... ٥٣
النموذج الثالث ...... آية ١٤ ...... ...... ...... ... ٥٧
النموذج الرابع ...... آية ٢٣-٢٤ ........ ...... ... ٦٠
النموذج الخامس ...... آية ٢٦ ...... ...... ...... ٦٥
النموذج السادس ...... آية ٥٦ ...... ...... ...... ٧٤
النموذج السابع ......آية ٦١ ...... ...... ...... .. ٨٠
النموذج الثامن ...... آية ٦٧-٧١ ....... ...... ... ٨٤

النموذج التاسع ...... آية ٨٠ .... ...... ....... ٩١
النموذج العاشر ...... آية ١١١ .......... ...... ٩٤
النموذج الحادي عشر ....آية ١١٨ ...... ...... ٩٦
النموذج الثاني عشر .....آية ١٢٠....... ...... .. ٩٩
النموذج الثالث عشر .....آية ١٢٥-١٢٨ ..... ١١٠
النموذج الرابع عشر ...... آية ١٣٥-١٤٠ ... ١١٩
النموذج الخامس عشر ...... آية ١٧٠ .... ....... ١٢٤
النموذج السادس عشر .....آية ٢١٤ ...... ...... ١٢٦
النموذج السابع عشر ......آية ١٦٥-١٦٧...... .. ١٢٨
النموذج الثامن عشر ...... آية ٢٤٦-٢٥٠ ... ... ١٣١
النموذج التاسع عشر ...... آية ٢٥٨...... ...... ... ١٣٥
النموذج العشرون ......آية ٢٥٩...... ...... ..... ١٣٨
النموذج الحادي والعشرون ..... آية ٢٧٥.......... ١٤٠
الخاتمة ونتائج البحث ...... ...... ...... ...... ... ١٤٣
فهرس الآيات ...... ...... ...... ...... ...... ... ١٤٧
فهرس المراجع والمصادر ...... ...... ...... ......... ١٥٠
قائمة بكتب المؤلف ...... ...... ...... ...... ... .. ١٥١

رقــم الإيداع

13710 / 2001

ترقيم دولى : I. S. B. N. 152623

دار مســك للطباعة

ت: ٤٤٥٥١٧٢ - ٠١٢/٣٧٤٣٢٢٢